دكتور السيد محمد يونس

السفارة
فى عصر الرسالة

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ ١٩٩٧ م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اهتم الإسلام بالنظم الحضارية، اهتماماً كبيراً، وأمر أتباعه بالأخذ بها وتطويرها، فعندما كان المسلمون يفتحون البلاد، ويجدون فيها حضارة لم يدمروها أو يطمسوها، بل ينتفعوا بها، ويأخذوا ما فيه الخير، وما لم يتعارض مع الدعوة الإسلامية.

وكان المسلمون يعملون جاهدين على رقى وتحضر البلاد التى يفتحونها، وينشرون فيها الإسلام وحضارته، تلك الحضارة الإسلامية التى تكفل للبشرية جمعاء سعادتها ورقيها، وتخليصها مما حلّ بها من الضعف والوهن والوحشية.

وإن كانت الحضارة الغربية الآن بلغت طوراً عظيماً من الرقى والتقدم، حتى طار شذاها فى كل مكان، فإن مرد هذه الحضارة إلى حضارتنا الإسلامية، التى كانت السبب الرئيسى فى نموها وازدهارها، فقد اقتبس الغربيون منها الكثير والكثير فى كل المجالات من إدارة، وعلوم، وفنون، وعمارة وغير ذلك، عن طريق الاحتكاكات بينهم وبين المسلمين، وعن طريق المعابر والمنافذ التى نفذت منها الحضارة الإسلامية إليهم، وهى: الأندلس، وصقلية، والحروب الصليبية.

هذا بالإضافة إلى المؤلفات الإسلامية، التى أخذوها وانتفعوا بها، فجعلت منهم أمة متطورة، متحضرة. وإن كان معظم الأوربيين ينكرون فضل الحضارة الإسلامية عليهم، فإن فيهم قلة منصفون، اعترفوا بهذا الفضل فى صراحة وجرأة.

والحضارة الإسلامية وُضعت بذورها الأولى منذ عصر الرسول ـ

ﷺ ـ، وظلت تنمو وتزدهر شيئاً فشيئاً، حتى سادت العالم كله، وبهرته بجوهرها النقى، ومعدنها الأصيل، وبريقها الجذاب.

ومن النظم الحضارية التى اهتم بها الرسرل ـ عليه الصلاة والسلام «السفارة» فقد وضع أصولها وقواعدها، وذلك لقيام علاقات طيبة بين دولة الإسلام والدول والممالك الأخرى، فكانت سفاراته ـ ﷺ ـ إلى ملوك وأمراء العالم، لدعوتهم إلى الإسلام.

واختار الرسول ـ ﷺ ـ سفراءه ورسله من ذوى الفصاحة، والفطانة، والحزم، والعزم، وأهل العلم والفضل؛ ومن الذين يجيدون لغة البلاد التى يتوجهون إليها، ومعرفة طرقها ومسالكها. إلى جانب كمال الهيئة وجمال الصورة.

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، وقائمة للمصادر والمراجع التى خدمته، ووفرت له المادة العلمية، وفهرس للموضوعات.

وعقد **الفصل الأول** ليفصل الكلام عن «السفارة والسفير» ويبين مدلول كلمة السفارة، والسفير، والرسالة، وذكر الصفات التى يجب أن تتوفر فى السفير، ثم تطرق الكلام إلى معاملة السفراء، وأنه يجب لهم الإكرام، وحسن الاستقبال، والتوديع إذا غادروا البلاد، وضربت أمثلة، لما كان يفعله الرسول ـ عليه الصلاة والسلام مع السفراء الذين يفدون عليه، فقد كان المثل الأعلى والقدوة الحسنة فى كيفية معاملة السفراء، والاحتفال بقدومهم، وغمرهم بكرمه وفضله، ومنحهم الجوائز القيمة. ويقوم بتوديعهم إذا غادروا المدينة المنورة، ويُرسل معهم صفوة صحابته، لتعليمهم أمور الدين. وبذلك يكون ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى

أرسى أصول معاملة السفراء.

أما إذا أُسيء معاملة السفير، أو قُتل، فإن الدنيا تقوم وتقعد، ويكون ذلك بمثابة إعلان الحرب بين الدول. وهذا ما تناولته بالتفصيل مع ذكر الأمثلة على ذلك.

وتناول **الفصل الثانى** الحديث عن «السفارة فى العهد المكى»، وعلاقة المسلمين بالمشركين، وسفارات قريش إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وإلى عمه أبى طالب، لصرف الرسول ـ عليه الصلاة والسلام عن تبليغ دعوته، وعرضهم عليه المغريات، فوجدوا منه إصراراً على الاستمرار فى دعوته. ثم قيامه ـ ﷺ ـ بسفارة الطائف بنفسه، ومعه زيد بن حارثه ـ رضى الله عنه ـ لدعوة أهلها إلى الإسلام.

ولما وجد منهم صدوداً وإعراضاً، سيّر أول سفارة إسلامية إلى يثرب، قام بها «مصعب بن عمير» ـ رضى الله عنه ـ، ونجحت سفارته نجاحاً عظيماً، فى نشر الإسلام بين أهل يثرب، مما كان له عظيم الأثر فى تحول المسلمين إلى المدينة، وقيام الدولة الإسلامية بها.

وكان **الفصل الثالث**: لإلقاء الضوء على «السفارة فى العهد المدنى»، وقيام الرسول ـ ﷺ ـ بعقد معاهدات أمن وحسن جوار مع اليهود فى المدينة، وبيان كيفية التزام المسلمين بتلك المعاهدات، والمحافظة عليها، فكانوا مثالاً حياً فى الوفاء بالعهود والمواثيق، فى حين أن اليهود خانوا عهدهم، فكان جزاؤهم الجلاء عن المدينة المنورة، وبذلك استراح المسلمون من شرهم ومكائدهم.

ثم تناول هذا الفصل السفارات التى قامت بين المسلمين والمشركين فى الحديبية، والتى انتهت بعقد صلح بينهم، اعترف فيه القرشيون ـ لأول

مرة - بالدولة الإسلامية؛ ولما لم يلتزم المشركون بالعهود التى قطعوها على أنفسهم، فكان فتح مكة، ودخول الناس فى دين الله أفواجا.

وخُصص **الفصل الرابع والأخير** لتوضيح السفارات التى قام بها سفراء الإسلام خارج الجزيرة العربية. وبيان كيف أن الرسول - ﷺ - نقل الدعوة الإسلامية من المحلية إلى العالمية، بدعوة العالم كله إلى الإسلام، عن طريق السفراء الذين أرسلهم إلى ملوك وأمراء المعمورة يكتب منه، يدعوهم فيها إلى الإسلام بالحسنى والموعظة الحسنة. ومدى نجاح تلك السفارات وأثرها فى نشر الإسلام فى أرجاء المعمورة، ودخول كثير فى الإسلام وتوسيع رقعة الدولة.

وأما الخاتمة فكانت خلاصة للبحث مع ذكر أهم الحقائق والنتائج التى توصلت إليها.

وأدعو الله العلى القدير أن يكون التوفيق قد حالفنى، فإن كان ذلك، فهذا فضل من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، وإن كان غير ذلك فعذرى أننى اجتهدت وحاولت الإفادة. والكمال لله وحده، والله من وراء القصد معين، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور السيد محمد يونس

الفصل الأول: السفارة والسفير

- مفهوم السفارة والسفير
- معرفة العرب للسفارة فى الجاهلية
- الرسول - ﷺ - أول من سن السفارة فى الإسلام.
- صفات السفير:

(أ) خلقيّة (جسدية).

(ب) خُلُقيّة وعقلية.

- الرسالة التى يحملها السفير.
- معاملة السفراء.
- سوء معاملة الرسل ونقض المعاهدات.

كـان للسفـراء والرسل الذين بعـثهم الرسـول - ﷺ - إلى ملوك وأمـراء العالم، لدعـوتهم وقـومهم إلى الإسـلام، أعظم الأثر فى نشـر الدعوة الإسلامية. ولذا يحتم علينا البحث أن نتحدث عن مفهوم السفارة والسفير، وذكـر الشروط التى كان يُراعى توافرها فيه، وتوضـيح معاملة السفراء عند الدول والأقوام، والأثر الذى يترتب على تلك المعاملة.

السفارة: مصدر سفر، تقول سَفَر بين الـقوم سفراً وسفارة: أصلح، فهو سافر وسفير.

والسفير: هو المصلح بين القوم والسـاعى بينهم فى الصلح؛ والجمع سُفَراء[1].

والرسـول، فـهو مـأخـوذ من الإرسـال، وهو التـسليط والإطلاق والتوجيه؛ ومن عمله نقل أخبار من بعثه إلى المُرْسَل إليه وتوجيهه بما يراه مُرسله[2].

وأرسل الرسول: بعـثه برسـالة، وتراسل القوم: أرسل بعـضهم إلى بعض رسول ورسالة[3].

والسفـير والرسـول، هو شخص يقـوم بنقل الرسائل، سـواء كانت مكتوبة أو شفـوية إلى الدول، ويفاوض المسئولين فيهـا بقصد الوصول إلى ما يهم دولته.

وقد عرف العرب السفـارة فى العصر الجاهلى على النطاقين: المحلى

---

(١) ابن منظور: لسان العـرب ج٢/ ١٥٥، إعداد يوسف خياط، ونديم مرعـشلى. طبعة دار لسان العرب - بيروت (فى ثلاثة مجلدات كبار).

(٢) الأزهرى: تهذيب اللغة ج١٢/ ٣٩١. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(٣) د. محمد جبر أبو سعدة: النظريات السياسية ونظم الحكم الإسلامية، محاضرات لطلاب كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ٧٥ - ١٩٧٦م.

والعالمى. ففى **النطاق المحلى:** كان الأشراف منهم يسعون فى الصلح بين الجماعات المتشاحنة، وكانوا يحققون نجاحاً كبيراً فى القضاء على المنازعات، وعقد معاهدات الصلح، وذلك بتفاوض السفراء من كل جانب.

ويذكر ابن حجر العسقلانى: أن قريشاً استسفرت فى الجاهلية: «سُهَيْل بن عمرو»، و«عمر بن الخطاب» إلى القبائل المجاورة لها[1].

وفى **النطاق العالمى:** أقام العرب علاقات مع مَنْ يجاورهم من الدول، فيقول صاحب تاريخ اليعقونى: إن هاشم بن عبد مناف ـ الجد الثانى للنبى ـ ﷺ ـ قد ذهب إلى بلاد الروم، وعقد مع السلطات البيزنطية معاهدة تجارية، تمنح تجار مكة حرية التجارة فى مناطق الامبراطورية، فى نظير مبلغ من المال يدفعه إليهم القرشيون، وبعض الهدايا.

وعقد فى طريق عودته محالفات مع القبائل العربية، القاطنة على طول الطريق التجارى، المؤدى إلى بلاد الروم، ليضمن سلامة وأمن التجارة[2].

ويتحدث الطبرى عن هذه المعاهدات، وتلك المحالفات، التى عقدها هاشم بقوله: «إن هاشما عقد معاهدة مع البيزنطيين، فخرجت تجارة مكة إلى الشام، وعقد أخوه: نوفل معاهدة مع الفرس، خرجت على أثرها قوافل مكة التجارية إلى العراق، وبلاد فارس، وقام عبد شمس ـ الأخ الثالث ـ بعقد معاهدة مع النجاشى ـ ملك الحبشة ـ فخرجت التجارة إلى

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ج٣/ ٢١٢ وما بعدها.

(٢) اليعقوبى: فى تاريخه ج١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

الحبشة، وعقد المطلب ـ الأخ الرابع ـ معاهدة مع ملوك حمير ـ باليمن ـ فسارت التجارة إلى اليمن.»[1]

ولما ظهر الإسلام كان الرسول - ﷺ - أول من سن السفارة فى الإسلام، عندما بعث سفراءه ورسله إلى ملوك وإمراء العالم والقبائل، يحملون كتبه؛ فبعث سفارات إلى: هرقل- ملك الروم، وإلى كسرى- ملك الفرس-، وإلى النجاشى - ملك الحبشة -، وإلى المقوقس - حاكم مصرلهرقل -، وغيرهم، يدعوهم إلى الإسلام، فى أول اتصال دبلوماسى للسفارات بين دولة الإسلام، والدول والإمارات الأخرى.

وقد كانت دعوته-ﷺ -إلى هؤلاء، التى تضمنتها كتبه ورسائله، دعوة سلمية، لاتهديد فيها ولاوعيد، ولذا فقد نجحت سفاراته فى نشر دعوة الإسلام بين أرجاء المعمورة؛ ودخل فيها بالفعل بعض أهالى الشام، ممن كانوا تحت سيطرة الروم، وأهل اليمن الذين كانوا يُعانون من وطأة الحكم الفارسى، وعرف المصريون وغيرهم حقيقة الإسلام، حتى لم يعد مجهول لمن يريد أن يتعرفه، وتسامع به البلاد المتاخمة للعرب.

كما أن الرسول - عليه الصلاة والسلام- استقبل سفراء ، ومبعوثى الدول والقبائل، وغمرهم بكرمه وفضله، وأوصى المسلمين بذلك - وسوف نوضح ذلك فى موضعه من هذا البحث بإذن الله تعالى.

صفات السفير:

السفير يمثل من أرسله، فهو مرآة مُرْسِله، وقطعة من عقله، وشطراً من رأيه قوة وضعفاً، سياسة وغفلة، علماً وجهلاً. يقول المهلب بن أبى صفرَة: (كتاب الرجل: موضعُ عقله، ورسوله : موضعُ رأيه)[2].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج٢/ ٢٥٢.

(٢) ابن الفراء: رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ص٥٣.

ويقول الشاعر:

تخير رسولك إن الرسول يدل على عقل من أرسله[1]

ولذا وجب أن تتوافر فى السفير صفات خلْقية (جسدية) وخُلُقيه، وأن يكون صاحب ثقافة واسعة، فطناً ذكياً، يستطيع التصرف فى الأمور. ونحن مع هذه الصفات:

أولاً: الصفات الخِلْقية (الجسدية):

١ ـ جمال الصورة وكمال الهيئة:

يشترط فى السفير أن يكون حسن المظهر، جميل الصورة، بهى الطلعة، سليم الحواس، حسن الهدام، والوجه، والاسم، لقول الرسول ـ ﷺ ـ: (إذا أبردتم إلىّ بريداً فابعثوه حسن الوجه، حسن الاسم)[2].

وذلك لأن صورة السفير هى أول ما تقع عليه أنظار الناس، وأول ما يصل منه إليهم. وهيئته عنوان معبر عنه، ثم إن عامة الناس أول ما يرمقون فى السفير زيه، أكثر مما يرمقون كفايته وسداده[3]. فليس مقبولا أن يكون السفير دميم الصورة، أو مفرطاً فى الطول، أو القصر، أو فاقداً لأحد أعضاء جسمه، أو مهملاً لهيئته وهندامه.

٢ ـ سلامة النطق وفصاحة اللسان:

لابد أن يكون السفير «صحيح الفطرة والمزاج، ذا بيان وعبارة، بصيراً بمخارج الكلام وأجوبته، مؤدياً لألفاظ الملك ومعانيها، صدوق اللهجة،

---

(١) المصدر السابق ص٣٨.

(٢) السيوطى: الجامع الصغير ج١/ ١٥ الطبعة الرابعة ـ القاهرة، المناوى: فيض القدير ج١/ ٢٣٧ الطبعة الأولى ـ المطبعة التجارية الكبرى ـ القاهرة.

(٣) ابن الفراء: مصدر سابق ص٣٥ بتصرف.

لا يميل إلى طمع ولا طبع)[1] - وهو الشين والعيب -

ولذلك ففصاحة اللسان، وقوة البيان، من الصفات التى يجب أن تكون متوفرة فى السفير، بالإضافة إلى رجاحة عقله، وسداد رأيه. يقول أحد الحكماء: (اختر لرسالتك فى هدنتك، وصلحك، ومهماتك، ومناظرتك، والنيابة عنك، رجلاً حصيفاً، بليغاً، حُوّلاً قُلَّبا[2]، قليل الغفلة، منتهز الفرصة، ذا رأى جَزْل، وقول فصل، ولسان سليط، وقلب حديد، فَطِناً للطائف التدبير، ومستقلا لما ترجو أو تحاول بالحزامة وإصابة الرأى، ومتعقباً له بالحذر والتمييز، سامياً إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعه عنك.

إن حاول جرَّ أمر أحسن اعتلاقه - تعلقه -، وإن رام دفعه أحسن رده، حاضر الفصاحة، مبتدر العبارة، ظاهر الطلاقة، وثّابًا على الحجج[3].

وعلى ذلك فإنه لا يصح أن يكون السفير ألذع اللسان، سيء النطق، وضعيف الرأى، متردداً حيناً، ومقهوراً أحياناً، لا يحسن الاستفادة من الفرص المواتية له، ولا يجيد الإجابة إن سُئل.

٣ - عراقة الأصل:

يفضل أن يختار السفير من أصل عريق، ومن أسرة كريمة، يتحلى أفرادها بالقيم والمثل العالية، وذلك أحرى بنجاح سفارته، لحرصه على أن يأتى بخير، ويقبول الآخرين له، من آخر ذى نسب وضيع. يقول ابن

---

(١) الجاحظ: التاج فى أخلاق الملوك ص١٢١ تحقيق أحمد زكى - طبعة أولى - المطبعة الأميرية - القاهرة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.

(٢) أى يقلب الأمور، ويحتال الحيل.

(٣) ابن الفراء: مصدر سبق ذكره ص٣٣.

الفراء: (وليكن ـ أى السفير ـ من أهل الشرف والبيوتات، ذا همة عالية، فإنه لابد مُقْتَفٍ آثار أوليته، مُحب لمناقبها، مُسَاوٍ لأهله فيها)[1].

ويذكر ابن الفراء مجمل الصفات الجسدية فيقول: إنه يستحب فى السفير صفات شخصية منها: تمامُ القدّ، وفخامة الجسم، حتى لا يكون قميئاً ولا ضئيلاً، وحسن الصورة، وجمال المنظر، وجلال المظهر، لأن أعين الملوك تَسْبِقُ إلى ذوى الرُّواء من الرسل[2].

ثانياً: الصفات الخُلُقية والعقلية:

١ ـ معرفة لغة الجهة التى يُوفد إليها:

يشترط فى السفير أن يكون ممن يجيد لغة الدولة أو الجهة التى يُوجه إليها، حيث أن الرسائل كانت تكتب ـ فى تلك الفترة ـ باللغة العربية، فيقوم السفير بقراءتها بلغتها فى حضرة الملك أو الأمير ورجال السياسة، ثم يترجمها إلى لغتهم. وهذا أدعى إلى نجاح مهمته، فالجهل بلغات البلاد، يسبب فشلاً فيها، فإن المترجم منهم ربما يخطىء فى حرف أو كلمة فيضيع معه أو معها مضمون الرسالة، وتتحرف إلى غير قصدها. أو قد يدفع المترجم حقده على الإسلام، وتعصبه لدينه إلى التحريف والتبديل فيها مما يفسد المعنى، ويُضيع مضمون الرسالة.

ولذا فقد اختار الرسول ـ ﷺ ـ سفراءه ممن يجيدون لغة الجهات، وأرسل كلا إلى الجهة التى يُتقن لغتها، حتى يمكنه التفاهم مع أهلها.

وحرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتعلم صحابته لغة الأمم

---

(١) رسل الملوك ص٣٤.

(٢) المصدر السابق ص٤٧ بتصرف، وانظر كذلك د. محمد جبر أبو سعدة: النظريات السياسية ص٧٠، ٧١.

الأخرى، ليأمنوا مكرهم، ويتقوا شرهم، فقال: (من تعلم لغة قوم فقد أمن مكرهم). فأمر زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ أن يتعلم السريانية، فانكب زيد على قواعدها وآدابها حتى أتقنها فى سبعة عشر يوماً، واليهودية فى أقل من نصف شهر[1]. يروى خارجة بن زيد عن أبيه زيد ابن ثابت ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: (أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ أن أتعلم له كتاب اليهود، وقال لى: إنى لا آمن اليهود على كتابى، فلم يمر علىّ نصف شهر حتى تعلمته فكنت أكتب له إلى اليهود، وإذا كتبوا إليه قرأت كتابهم)[2].

وإن كانت هذه المدة لا تكفى لإتقان إنسان لغة أخرى. نقول: إنها الرغبة الملحة المخلصة فى الإحاطة، وإذا كانت لإنسان رغبة «ما» لشىء وعزم عزماً أكيداً على إدراكه، وأخلص النية، يسر الله له قصده، بالإضافة إلى أن هؤلاء كانت لديهم ذاكرة قوية، حافظة للشىء واعية.

وذكر ابن سعد: أن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ كان يقرأ بالسريانية[3].

ولهذا وجب أن يكون السفير عارفاً بلغة الدولة أو الجهة المبعوث إليها، فإن لم يتيسر ذلك، كان يُبعث معه مترجم، ممن يتوفر فيه الكفاية، والولاء، ويحوز ثقة الجميع.

٢ ـ معرفة الطرق والمسالك:

يُراعى فى السفير أن يكون عارفاً طرق ومسالك الجهة التى يُرسل

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ق٢/١١٥.
(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص٥٨٣ تحقيق د. صلاح الدين المنجد.
(٣) الطبقات الكبرى ج٤ ق٢/١١.

إليها، لأن ذلك يُسهل مهمة تبليغ رسالته فى وقت قصير، ويؤدى إلى نجاح سفارته.

أما لو جهل طرق البلاد ومسالكها، فإن ذلك يُعرض سفارته للفشل، بوصولها فى وقت متأخر، فيضيع الغرض المنشود منها، ذلك كطلب نجدة أو معرفة أخبار.

٣ ـ الأمانة والإخلاص:

من أهم الشروط التى يجب أن توجد فى شخص السفير، أن يكون أميناً، مخلصاً لمن أرسله، صادقاً فيما يبلغه عنه، أو عن الدولة التى أسفرته، بكل أمانة دون مبالغة تخرجه عن المقصود، أوحذف وإيجاز يقصر عنه؛ فهو مؤتمن فى أداء مهمته بكل إخلاص وولاء لمن بعثه، وبكل التزام بعقيدته.

والسفير الناجح هو الذى يعرف كيف يحمل هذه الأمانة، من دولته إلى الدول الأخرى، ومن شعبه إلى الشعوب الأخرى، بما يتحلى به من صفة الأمانة.

كما يشترط فيه القناعة، حتى لا تستميله الدولة الموفد إليها بالأموال، مما يجعله يتهاون فى أمر من الأمور التى أُرسل من أجلها. وهذا ما جعل الدول ـ فى العصر الحاضر ـ تحرص على أن تُجرى على السفير الأرزاق الواسعة، حتى لا تميل نفسه إلى مال أو هدية تُقدم إليه. يقول ابن الفراء: (ويجب أن تُزاح علله ـ أى السفير ـ فيما يحتاج إليه، حتى لا تَشْرَهَ نفسُه إلى ما يُبذَلُ له ويُدْفَعُ إليه، فإن الطمع يقطع الحجة)[1].

---

(١) رسل الملوك ص٣٥.

وكذلك يحرص أولو الأمر فى الدول أن يكون سفيرها ممن يتمتع بوازع حيّ من ضميره، ورقابة ذاتية نابعة من نفسه، ليفوت على بعض الدول ما تنصبه له من الشباك، لتوقعه فيها، وتحصل منه على أخبار ومعلومات هامة عن دولته، ما كان له أن يفصح عنها، فقد تلجأ هذه الدول إلى وسائل الإغراء - وما أكثرها - من نساء وخمر ونحوهما، وتقدمها إلى السفراء، فلو لم يكن السفير صاحب ضمير حيّ، ومن أهل التقوى والصلاح، لوقع فى بعض المغريات. يقول ابن الفراء: (... فإن الناس يحتالون للرسل بالقِحَاب، ويستخرجون بهن مخايل صدورهم)[1].

ولذا وجب على السفير أن يتجنب المغريات، وأن يكون سلوكه فى أثناء سفارته مرآة طيبة، وصورة مشرقة عن الإسلام، ونبى الإسلام - ﷺ -.

٤ - الحلم والصبر:

من صفات السفير الناجح أن يكون حليماً صبوراً، فيحتاج إلى الحلم فى مفاوضاته مع سلطات الدول المختلفة، فلو لم يكن حليماً لتعرض لمواقف يُستثار فيها ويُستفذ[2].

كما يلزمه الصبر والثبات وتحمل المشاق والصعاب التى تواجهه كمشقة السفر، وألم الغُربة، والبعد عن الأهل والوطن، وما يجده فى الغربة من اختلاف الظروف والمعاش عما ألفه وتعود عليه أثناء وجوده بين أهله ومجتمعه.

---

(١) رسل الملوك ص٥٥.

(٢) ابن الفراء: المصدر السابق ص٤٠ بتصرف.

ويكون الصبر أحوج ما يحتاج إليه السفير، فى حالة تعمد المسئولين فى الدول المرسل إليها، تعطيل مهمته، وتأجيل مقابلاته مع حاكم الدولة أو رجال السياسة بها. بقصد إدخال السأم والملل إلى نفسه، رغبة فى الحصول منه على تنازل أو تهاون فى المهام التى جاء من أجلها.

٥ ـ العلم بأمور الدين والدنيا:

على السفير أن يكون عالماً بأمور الدين والدنيا، متفوقاً فى علومهما، بحيث إذا سئل عن مسألة من المسائل، أو قضية من القضايا، أجاب إجابة مفيدة، وشرح ووضح ودافع إذا تطلب الأمر ذلك[1].

كما ينبغى علمه باللغة، ليعرف دلالات الألفاظ ودقة معانيها، بصيراً بمخارج الكلام ووجوهه، ليؤدى لفظ مُرسله أو كتابه على الوجه الأكمل[2]، ويفهم أسلوب مفاوضيه وقصدهم من حديثهم معه.

٦ ـ الذكاء والفطنة:

يجب أن يكون السفير ذكياً فطناً، ذا بصيرة بالأمور، يتصرف فى المواقف بحنكة ودراية، حسب المواقف التى يتعرض لها فى الدولة المبعوث إليها، دون أن يحيد عن مبادىء دولته ومثلها ومواقفها.

يجمع بين سياسة اللين والشدة المبطنة باللين، ولربما يحتاج فى بعض المواقف أن يجيل الحق فى شخص الباطل، والباطل فى شخص الحق، دون أن يفقد الحق جوهره، والباطل معناه، فى دهاء ودراية بما يتطلبه كل موقف[3].

---

(١) ابن الفراء: مصدر سابق ص٣٤ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ص٥٠ بتصرف.
(٣) المصدر الأسبق ص٣٤ بتصرف.

٧ ـ قوة الشخصية:

من الصفات التى يحرص وجودها فى السفير، أن يكون قوى الشخصية، صاحب قلب من حديد، حتى لا يتأثر بالمواقف التى تواجهه، فهو محتاج من الإقدام والجرأة التى تصادفه فى قصور الملوك والحكام إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار والرزانة. لأنه ليس على كل الطبقات يشتد، ولا لكلها يلين[١]. كما أنه فى حاجة إلى التريث والسكينة، والبعد عن التسرع والاندفاع.

وعلى وجه الإجمال: يشترط فى السفير من جهة خُلُقه وعقله، أن يكون ذا رأى سديد، وفكر حصيف، حاضر الذهن، ثاقب النظرة، قادراً على التمييز بين دقائق الأمور، مكيفا فى تقديره لما يعرض له على البديهة.

هذا فضلاً عن فصاحة لسانه، وحلو عبارته، وعذوبة حديثه، ليفتن السامع ويشده إليه[٢].

وكذلك ينبغى أن يتمتع السفير بقسط وافر من الجرأة والإقدام، والحلم والصبر، وقوة الاحتمال والتأنى، والحزم والعزم معاً، وأن تكون ثقافته واسعة، وإلمامه بالعلوم مناسباً، كالعلم بأحكام القرآن الكريم، والسنن، والفرائض، والتواريخ، وأصول الخراج والحساب، وغير ذلك من العلوم والمعارف[٣].

وقد اختار النبى ـ ﷺ ـ سفراءه ومبعوثيه ممن يتوفر فيهم صفات

---

(١) ابن الفراء: رسل الملوك ص٣٦. بتصرف.

(٢) د. محمد جبر أبو سعدة: النظريات السياسية ص٦٩، ٧٠.

(٣) ابن الفراء: مصدر سبق ذكره ص٣٤. بتصرف.

السفير الناجح، فقد كانوا من الذين يتصفون بحسن الخلق، وكمال الهيئة، وحسن المظهر، ويتميزون بالنباهة، والبلاغة وقوة التأثير فى السامعين، وسرعة البديهة، ورجاحة الحجة، وسعة الأفق، والدهاء، ومن أهل العلم والفضل، وذلك حتى يقوم السفير منهم بأداء مهمته على أكمل وجه، ويكون سلوكه فى أثناء سفارته مرآة طيبة ينعكس من خلالها صورة طيبة عن الإسلام ورسول الإسلام - ﷺ -.

ونخص بالذكر منهم: «عمرو بن العاص» - رضى الله عنه - الذى اشتهر بالدهاء[1]، وسعة الأفق، وقوة الحجة، إذ تمكن بما أوتى من مهارة أن يقنع عبّاد أخو جَيْفر - ابنى الجُلَنْدى - صاحب عمان - بضرورة الدخول فى الإسلام، ولما رأى تردده فى قبول الإسلام، فظل يُبين له محاسن الإسلام وفضائله حتى دخل فيه عن رغبة واقتناع.

وأدخل عباد، عمراً على أخيه: جَيْفر، ليدعوه إلى الإسلام، فعرض عمرو عليه الإسلام بلباقة، فرأى ميله إلى الإسلام، وتردده فى قبوله، خشية على ملكه. فتفرس عمرو ذلك، وقال له: (إن أسلمت صرت أميراً على قومك، وشفعك فيهم رسول الله - ﷺ)، وما زال به حتى أسلم. وتبع الأخوين خلق كثير[2]، «فالناس على دين ملوكهم»[3].

ومن سفراء النبى - عليه الصلاة والسلام -: «جعفر بن أبى طالب» - رضى الله عنه -، ذلك السفير الذكى النابه، العالم المقنع، ظهرت عبقريته فى عرض الإسلام على النجاشى - ملك الحبشة -، وبيان مزاياه، فأسلم مقتنعاً بما سمعه من جعفر.

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٣٢٢ - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم.
(٢) ابن سيد الناس عيون الأثر ج٢/ ٣٦٧ - ٣٦٩ بتصرف.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٢.

وعندما أرسلت قريش سفيريها إلى الحبشة بالهدايا النفيسة للملك ورجال دولته، كى ترغبه فى طرد المسلمين من بلاده. فأرسل الملك يستدعى المسلمين، واتفق الجميع على أن يكون المتحدث باسمهم: «جعفر بن أبى طالب»، الذى استطاع بما أوتى من فصاحة اللسان، وقوة الحجة والبيان، أن يجعل النجاشى يرفض سفارة القرشيين، ويرد هداياهم، ويأمر للمسلمين بكسوة وطعام، وما يصلح شأنهم[1].

ومن ذلك نعلم أن سفراء النبى - ﷺ - قد اكتمل فيهم صفات السفير الماهر، الناجح، وأن سفاراتهم أتت بنتائج وثمار طيبة، - وسوف نبين ذلك فى موضعه من هذه الدراسة، إن شاء الله تعالى - وأنه - ﷺ - قد وضع بذلك أسس السفارة، وقواعد العلاقات الدبلوماسية، وفن التعامل مع الدول، لمن يأتى من بعده.

وقد نهج أصحابه نهجه، واهتموا بالاتصالات الدبلوماسية مع الدول المجاورة لهم، مما أدى إلى نشر الدعوة الإسلامية، وتعريف أهل البلاد الإسلام الصحيح، وأنه دين الحق، والعدل والرحمة والمساواة، بخلاف ما أشاعه عنه الأعداء.

* * *

الرسالة: هى ما يحمله السفراء من صحف من المسئولين فى دولهم إلى دولة أخرى، بقصد دعوة، أو عقد هدنة، أو تبادل أسرى.. وغير ذلك.

وقد حمل سفراء النبى - ﷺ - رسائله وكتبه إلى ملوك وأمراء العالم، لدعوتهم إلى الإسلام.

وكانت الرسالة تكتب على ورق جيد، من أجود الأنواع الموجودة فى

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج١/٢٠٦ - تحقيق د. احمد حجازى السقا.

ذلك الوقت، وتطوى كالقصبة، وتكتب باللغة العربية، ويقوم السفير المسلم بقراءتها على مَنْ أرسلت إليه باللغة العربية ثم يترجمها إلى لغة البلاد، وذلك ضماناً لتحقيق الغرض المنشود منها.

وكانت تفتتح بالبسملة، ثم ذكر اسم النبى - ﷺ -، وذكر اسم من أُرسلت إليه، ثم إلقاء السلام عليه وعلى من اتبع الهدى من قومه وأتباعه، والبلوغ إلى الغرض الذى أرسلت من أجله الرسالة.

وكانت تختم فى النهاية بخاتم الرسول - ﷺ - وقد اتخذ له خاتماً من فضة، مكتوب عليه: محمد رسول الله» فى ثلاثة أسطر[1]، هكذا:

الله

رسول

محمد

وقد أخبر بعض الصحابة رسول الله - ﷺ - أن الفرس والروم لا يعتمدون الرسالة إلا كان موقع صاحبها عليه.

وقد تميزت رسائل النبى - ﷺ - بأسلوبه الجامع المانع، الموجز المحكم، المضىء المبين.

وكان يكتب لرسول الله - ﷺ - عدد من صحابته الكرام منهم: زيد بن ثابت، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى، وعبد الله ابن سعد بن أبى السرح، وعبد الله بن الأرقم. .[2].

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج١ ق٢/ ١٥، البخارى: فى صحيحه ج٧/ ١٧٦، كتاب اللباس، الترمذى: فى سننه ج٤/ ٢٠١، ٢٠٢ كتاب اللباس، باب ما جاء فى نقش الخاتم.

(٢) المسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٤٥، ٢٤٦.

واهتم أصحاب رسول الله - ﷺ - بعده، بالرسائل التى كان الخلفاء يرسلونها إلى الحكام والأمراء، فجعلوا لها ديواناً خاصاً عرف بديوان الرسائل، أو ديوان الوثائق، ثم أطلق عليه فيما بعد اسم: ديوان الإنشاء. وضم عددا من الكتاب، من ذوى الثقافة الواسعة، وفصاحة اللسان، ومن أهل العلم والفضل والرأى.

وكان متوليه يسمى صاحب الرسائل أو الوثائق إو الإنشاء، ويتمتع بمكانة رفيعة عند الخلفاء.

معاملة السفراء:

السفراء والرسل مبعوثون من قِبَل دولهم، وهم يمثلونهم، ويتحدثون بلسان مَنْ أوفدهم، ويحملون كلامه، ويبدون رغباته. ولذا وجب أن يُعاملوا معاملة حسنة، ويستقبلون بالحفاوة، ويحاطون بالرعاية والإكرام. فإذا عُوملوا هذه المعاملة، فكأنما أكرم مَنْ أوفدهم نفسه، وكلما زادت العناية بهم دلّ ذلك على مبلغ مكانة المُرسِل فى نفس المُرْسَل إليه، وعلو منزلته لديه.

فقد أكرم - ﷺ - الوفود التى وفدت عليه، معلنة إسلامها، وأحسن استقبالهم، وغمرهم بكرمه وفضله، وأكرم وفادتهم؛ وعندما كانوا ينصرفون يودعهم بنفسه، ويأمر بلالاً - رضى الله عنه - أن يحسن جوائزهم.

ونذكر أمثلة على ذلك:

أنه عندما وفد عليه سفير «فروة بن عمرو الجذامى»، مُعلنًا إسلامه، لما وجده فى الإسلام من المعانى السامية، وأنه يسمو بالمؤمنين، ويجعلهم يبذلون أرواحهم رخصية فى سبيل إعلاء كلمة الله، والفوز برضاه، وأنه

يجعلهم سواسية، لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى. لمس فروة تلك المعانى وغيرها فى غزوة مؤتة[1] سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، إذ كان والياً على فلسطين من قبل الروم، فأسلم، وأرسل: «مسعود بن سعد» سفيراً بإسلامه. فأحسن النبى - ﷺ - استقباله، وأكرم وفادته، وأحسن جائزته[2].

ولما قدم على رسول الله - ﷺ - وفد بلىّ، فى ربيع الأول سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، أكرمهم، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، وأقاموا ثلاثة أيام فى ضيافته. ولما هموا بالانصراف، أمر لهم بجوائزهم، ثم رجعوا إلى بلادهم[3].

وجاءت رسل تجيب - قبيلة من قبائل اليمن - إلى المدينة المنورة سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، وكانوا ثلاثة عشر رجلا، استقبلهم النبى - ﷺ - استقبالاً كريماً، وأحسن ضيافتهم وأجزل جوائزهم، فأمر بلالاً - رضى الله عنه - أن يعطيهم أكثر مما كان يعطى مَنْ يفد عليه من السفراء[4].

وحين جاء سفراء سعد - من قبيلة خُزاعة - والتقوا برسول الله - ﷺ - عرض عليهم الإسلام، فأسلموا وأقاموا ثلاثة أيام فى ضيافة المسلمين، ولما أرادوا العودة إلى بلادهم، أمر بلالاً - رضى الله عنه - أن يُجيزهم بأوراق من فضة[5].

وأحسن - ﷺ - استقبال وضيافة رسل بنى حنيفة، الذين وفدوا

---

(١) موتة: قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام - ياقوت: معجم ج٥/ ٢٢٠.
(٢) ابن سعد: الطبقات ج١ ق ٢/ ٣١.
(٣) المصدر السابق ج١ ق ٢/ ٦٥، ٦٦.
(٤) ابن القيم: زاد المعاد ج٣/ ٤٦، ٤٧.
(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ٢٤٨، ٢٤٩.

عليه فى سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، فأسلموا، وأمر لهم بالجوائز[١].

وفى رمضان سنة ١٠هـ/ ٦٣١م وفد سفراء غسّان على النبى - عليه الصلاة والسلام - فأنزلهم دار الضيافة، وغمرهم بكرمه وفضله، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وشهدوا أن ما جاء به هو الحق، فأجازهم - ﷺ - بجوائز قيمة، ثم عادوا إلى بلادهم[٢].

وكان السفراء والوفود يفدون على المدينة - عاصمة الدولة الإسلامية - فيستقبلهم النبى - ﷺ - بفرح وسرور، ويشملهم بكرمه الوفير، وينزلهم «دار رملة بنت الحارث» - والدة عبد الله بن عامر - وكانت تقع فى شمال المدينة، قرب قُبَّاء، وحولها أغراس النخيل والعيون، أُعدت للضيوف، وكان لها خدم يقومون بخدمة الضيوف، وتوفير الراحة، وواجبات الضيافة لهم.

وكان الرسول - ﷺ - يلاطف الوفود ويجيزهم، ويحضر لهم أحمال التمر، يأكلون منه، فقد أجرى على وفد بنى حنيفة - قوم مسيلمة الكذاب - ضيافة كريمة، كانوا يأتون بغداء وعشاء، مرةً خبزاً ولحماً، ومرةً خبزاً ولبناً، ومرة خبزاً وسمناً، ومرة تمراً يُنثر بين أيديهم نثراً[٣].

وكان ثوبان - غلام النبى - ﷺ - وبلال يتوليان العناية بالسفراء. وكان الرسول - عليه الصلاة السلام - يأمر صحابته بتعليمهم الإسلام، وتفقيههم فى الدين. فكانت هذه السفارات تعود إلى بلادها وهى تحمل الإسلام فى قلبها، وهم أشد حُباً له، وحماساً فى نشره، والدعوة إليه،

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤/ ٤٢٥، ٤٢٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات ج١ ق٢/ ٧١، ٧٢. ابن سيد الناس: عيون الأثر: ج٢/ ٢٥٦، ٢٥٧.

(٣) ابن سعد: مصدر سبق ذكره ج١ ق ٢/ ٥٦.

وكراهية شديدة لمعتقداتهم السابقة.

وقد استخدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه السفارات ببراعته وحكمته، لنشر الإسلام فى البقاع عن طريق الإقناع والسلم. وكان يُرسل معها صفوة رجاله، ليبلغوا الإسلام إلى الناس بالحسنى والموعظة الحسنة، ولكى يكونوا عنواناً طيباً للإسلام ورسول الإسلام ـ ﷺ ـ.

ولذا فإن معاملة السفراء معاملة طيبة واجبة، قد أوجبها الإسلام، وأمر اتباعه بها. ومهما كان هناك اختلاف فى وجهات النظر بين الدول، أو بين المُرْسِل والمُرْسَل إليه، فلن يجوز إساءة معاملة الرسل والسفراء، أو الاعتداء عليهم بالإهانة أو القتل. وهذا ما جعله الإسلام مبدأ عاماً، وحرص على نشره بين الأمم، فأوجب الرسول ـ ﷺ ـ معاملة السفراء بالحسنى، وإحاطتهم بالرعاية والحماية. فقد عامل رسولا مُسَيْلمة الكذاب معاملة حسنة، وأفاض عليهم بكرمه. ولما سألهما عن رأيهما فى قول مسيلمة أنه نبى ـ قالا: نقول كما قال. فقال ـ ﷺ ـ: «لولا أن الرسل لا تُقْتَل، لضربتُ أعناقكما»[1].

وهذا مبدأ أقره الرسول ـ ﷺ أن الرسل والسفراء لا يتعرضون للقتل، مهما كان هناك اختلاف فى الأمر، ولا يُصيبهم أذى. وهذا فرق واضح بين الإسلام الذى يأمر أتباعه بالوفاء بالالتزامات والعهود، وبين الغساسنة الذين قتلوا سفير الإسلام: «الحارث بن عُمَيْر الأزدى»، الذى سيّره الرسول ـ ﷺ ـ بكتاب منه إلى أمير بُصْرى: «شرحبيل بن عمرو الغسانى»، التابع لهرقل الروم ـ يدعوه إلى الإسلام، فقام شرحبيل وأوثق السفير رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه[2].

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل ج٣/ ٤٦، ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ٧٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات ج٢ ق ١/ ٩٢، والمصدر السابق الثانى ج٢/ ١٥٥.

فكان جزاؤهم أن جرد لهم النبى - ﷺ - حملة من المسلمين لتأديبهم وتلقينهم درساً فى كيفية احترام السفراء. فكانت سرية موتة سنة ٨هـ/ ٦٢٩م.

وبذلك يكون الرسول - ﷺ - قد وضع نظم وأسس السفارات، وكيفية التعامل مع الدول، واحترام سفراءها، وبيان فن العلاقات الدبلوماسية. فعندما كان يفد عليه رسل الأعداء، وهم على عداوتهم للإسلام، فلا يهجهم، ولا يقتلهم، ولا يحبسهم. وجاءه أبو رافع سفيراً لقريش، ورأى سماحة الإسلام، وعدله، وبساطته، وأنه يُسوى بين الناس جميعا، مال إلى الدخول فيه، وعرض على الرسول - ﷺ - ألا يرجع للمشركين. فأمره - عليه الصلاة والسلام - أن يعود إليهم، فإن كان الإسلام لامس شغاف قلبه فليرجع.

ويتحدث أبو رافع عن ذلك فيقول: بعثتنى قريش إلى النبى - ﷺ - فلما أتيته وقع فى قلبى الإسلام. فقلت: يا رسول الله: لا أرجع إليهم. فقال: «إنى لا أخيس بالعهد، ولا أحبس الرد، ارجع إليهم، فإن كان فى قلبك الذى فيه الآن فارجع»[1].

سوء معاملة الرسل ونقض المعاهدات:

إن السفراء فى العلاقات بين الأمم والدول لا تُعامل معاملة سيئة، ولا يمسهم أحد بسوء، ولا يُقتل أحدهم، لأن ذلك خرق للمواثيق والمعاهدات بين الأمم، ولو حدث أن أُسيء معاملة سفير، أو قُتل، أو أُشيع قتله، كما حدث مع السفير «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - حين أرسله الرسول - ﷺ - إلى قريش يوم الحديبية، فحبسته ساعات

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ٧٥.

لترى رأيها، وترددت الأخبار، وطارت الإشاعات بقتله، فتعاهد المسلمون وبايعوا رسول الله - ﷺ - على قتال قريش، والثأر لمقتل عثمان. وإذ به يعود للمسلمين فيفرحون به، ويؤثر رسول الله - ﷺ - جانب الصلح والموادعة على القتال والحرب.

وكذلك ما حدث للسفير: «الحارث بن عُمَيْر الأزدى» - رضى الله عنه -، الذى أرسله الرسول - ﷺ - برسالة منه، إلى أمير بُصْرى - بالشام -: «شرحبيل بن عمرو الغسانى» - التابع لقيصر الروم - يدعوه فيها إلى الإسلام، فقام شرحبيل فأمر بالسفير فأوثق رباطاً، ثم ضرب عنقه[1]. فشق ذلك على رسول الله - ﷺ - عندما أتته الأخبار بذلك؛ وكان الحارث هو السفير الوحيد، الذى قُتل لرسول الله - ﷺ -، فندب الناس للغزو، لتأديب عرب الغساسنة على خيانتهم واعتدائهم على السفير بالقتل. وكان ذلك الفعل منهم، بمثابة إعلان الحرب على المسلمين، أو هو أشد وأنكى، فلم تَجْرِ العادة بقتل الرسل والسفراء، مهما اشتد الخلاف.

وأسرع الناس وتجمعوا فكانوا ثلاثة آلاف مقاتل، وكانت موقعة مؤتة، أول لقاء دامى بين المسلمين والروم، الذين بلغ عددهم مائة ألف مقاتل، مزودين بكافة الاستعدادات والامدادات، وانضم إليهم القبائل العربية فى شمال المدينة.

وتقدم الجيش الإسلامى بقيادة: «زيد بن حارثة» - رضى الله عنه -

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج٢ ق ١/ ٩٢، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ١٥٣، ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ١٥٥.

حتى بلغ مكان مصرع الحارث، وسمع بهم العدو، فجمعوا لهم، وقام شرحبيل بن عمرو، وقدم الطلائع أمامه، وبعث أخاه: سدوس بن عمرو فى خمسين فارساً فلقوا المسلمين فى وادى القرى، فقاتلوه وقتلوه[1].

ونزل المسلمون فى معان ـ من أرض الشام ـ فبلغهم أن هرقل استعد لملاقاتهم بمائة ألف رومى، انضم إليهم من القبائل العربية مائة ألف أخرى. وأمام هذا العدد الهائل، عقد المسلمون مجلساً للتشاور، واستقر الرأى أن يكتبوا بذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ليبعث لهم مدداً، أو يأمرهم بأمره. غير أن القائد الشجاع: «زيد بن حارثة» ـ رضى الله عنه ـ، وقف فى الناس خطيباً، وحثهم على ملاقاة العدو، وأنهم لن يُهزموا عن قلة.

وهكذا لعبت العقيدة الإسلامية دورها فى تهوين أمر العدو على المسلمين. فزحفوا على مؤتة، وفيها دارت معركة ضارية، ضرب فيها المسلمون أروع الأمثال فى التضحية والفداء، والبذل، والدفاع عن العقيدة. مما لم يُسمع التاريخ بمثله إلا فى فتوحات هؤلاء أبطال الإسلام. ودوخوا الرومان طوال أيام المعركة السبعة، حتى أن بعض الكتائب الرومية فكرت فى الإنسحاب، أمام بسالة المسلمين وشجاعتهم. غير أن الرومان استطاعوا فى اليوم السادس من المعركة أن يحملوا على قلب جيش المسلمين، ويقتلوا قواده الواحد بعد الآخر: «زيد بن حارثة»، و«جعفر بن أبى طالب»، و«عبد الله بن رواحة» ـ رضى الله عنهم ـ. وكان الرسول ـ ﷺ ـ ولاهم القيادة، وباستشهادهم تحول ميزان المعركة لصالح الروم. غير أن الله سلّم، وأنقذ المسلمين من فناء محقق؛ فحمل

---

(١) المقريزى: امتاع الأسماع ج١/ ٢٦٠.

سيف الله المسلول: «خالد بن الوليد» - رضى الله عنه - الراية وقاتل بحماس منقطع النظير، وأثخن المسلمون فيهم القتل، حتى أن خالد يقول: «اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف - أى تكسرت من شدة الضرب -، وما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية»(1).

وجاء المساء فكانت هدنة بين الفريقين، مكنت خالداً أن يجرى تعديلاً فى الجيش، فجعل المقدمة: ساقه، والساق: مقدمة، والميمنة: ميسرة، والميسرة: ميمنة، ليُوهم العدو بوصول مدد؛ وفعلا فما أن أصبح الصباح، ورأى الأعداء تغير حالة الجيش، ظنوا بوصول الإمدادات، فتملكهم الرعب وتقاعسوا عن القتال، ودار بخلدهم ما صنعه بهم ثلاثة آلاف من الشجاعة والبأس، فكيف الأمر، وقد جاءتهم الإمدادات التى يجهلون عددها وقوتها. وتمكن خالد من الإنسحاب بالجيش والعودة إلى المدينة المنورة.

وإن كانت هذه المعركة لم تحقق الغرض المنشود منها، وهو تأديب عرب الغساسنة، لقتلهم السفير «الحارث بن عمرو، والثأر منهم. إلا أنها كانت درساً قاسياً للرومان، غيّرت مفاهيمهم الخاطئة عن المقاتل العربى، قبل أن يدين بالإسلام، والذى كان يقاتل كراً وفراً بصورة رئيسية، وفى حركات خاطفة، بغية السلب والنهب فقط، ثم ينسحب سواء كسب أم خسر، إنه أسلوب بدائى لا يتناسب فى القتال مع أساليب العسكرية الرومانية.

فما أن دارت المعركة صمد فيها المسلمون صموداً رائعاً، صنعه الإيمان الصادق، فمكنهم من إيقاف الزحف الهائل للجيش الرومانى، وقيامهم -

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية ج٤/٢٤٦، ٢٤٩.

على الرغم من قلة عـددهم واستـعداداتهم - بهـجوم مـضاد، أتوا فـيه بالعجائب، فصرعوا المئات من الرومان وأتباعهم.

وأمام هذا الاسـتبسال الرائع بدأ بعض الرومـان يركن إلى الفرار مع كثرتهم الهائلة، من هول مـا لاقى من المسلمين. فأدركوا أن المسلمين لا يُغلبوا عن قلة، ولا تُرهبهم كثرة العدد، والاستعدادات، ويحرصون على الموت كما يحرص الروم على الحياة.

ومن ثم فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى المسلمين، وهم يستمـيتون فى الدفاع، والقوة فى الهـجوم، فأعجبـوا بهم أيما إعجاب. وكان من أثر ذلك أن قام فروة بن عمـرو الجذامى - أحد زعماء العرب، وكان قـائداً لفرقة من جـيش الروم - بإعلان إسـلامه[1]. وكذلك ازداد الإسلام انتـشاراً بين قبائل نجـد المتاخمة للعـراق والشام فى ذروة سلطان الروم.

ومما زاد فى انضـمـام الناس إلى الإسـلام، اضطراب أحـوال الدولة البيزنطية، وعـجزها عن دفع مرتبات جنود عرب الشـام، الذين اشتركوا فى المعركة، فانصرف هؤلاء عن الامـبراطور وعن جنده، وازداد أمامهم بريق الإسلام وضـيائه، وصدق دعوته، فـدخل فى الإسلام ألوف: من سُلَيْم، وعلى رأسهم: العبـاس بن مِرْدَاس. ومن أشجع وغَطَفان، ومن عَبْس، ومن ذُبْيَان، ومن فزارة. فكانت وقعة مؤتة سبباً فى استتاب الأمر للمسلمين فى شـمال المدينة إلى حدود الشام، وفى ازديـاد الإسلام عزة وقوة ومنعة[2].

---

(١) ابن سعد: مصدر سبق ذكره ج١ ق ٢/ ٣١.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤١٦، ٤١٧.

ولما كانت هذه المعركة لم تؤدب عرب الغساسنة على خيانتهم للمسلمين، واعتدائهم على سفراء الدولة الإسلامية، فقد وجه النبى - ﷺ - حملة بقيادة عمرو بن العاص - رضى الله عنه - فى ثلثمائة رجل، وسيرها إليهم، وأمده بأبى عبيدة بن الجراح -رضى الله عنه - فى مائتى رجل، فلحق به، وسار حتى وطىء بلاد قضاعة، وأتى على أقصى بلادهم، فلقى فى آخرها جمعاً، حمل عليه المسلمون فهربوا وتفرقوا[1].

وعادت هذه الحملة إلى المدينة بعد أن شتت جموع القبائل الموالية للروم، واستردت هيبة المسلمين فى شمال الجزيرة العربية.

ومما سبق نعلم أن الاعتداء على الرسل والسفراء، أمر تُقام له الدنيا وتقعد، وكثيراً ما نشبت حروب بسبب ذلك، واستمرت أعواماً طويلة، صُرع فيها الفريقان.

نقض المعاهدات والمواثيق:

وأما نقض المعاهدات والمواثيق كثيراً ما يؤدى إلى الحروب الدامية بين الأمم، والإسلام يحرص كل الحرص على الوفاء بالعهود والمواثيق، ويأمر أتباعه بذلك. قال تعالى ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا** ﴾[2].

وأن الرسول - ﷺ - عندما هاجر إلى المدينة، عقد معاهدات أمن وحسن جوار مع اليهود، الذين يسكنون فيها، وحافظ المسلمون على

---

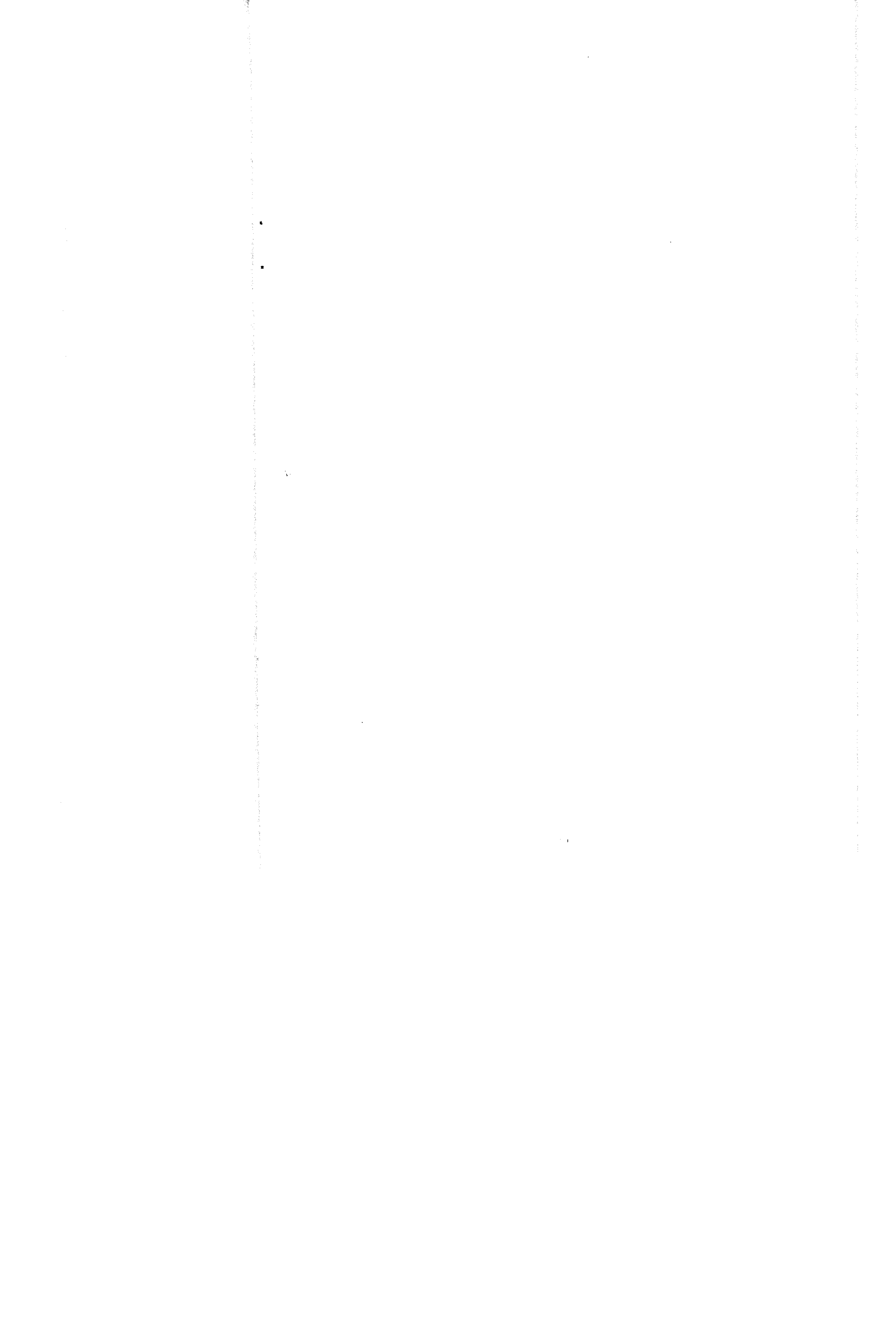
(١) ابن سعد: مصدر سابق ج٢ ق١/ ٩٤، ٩٥، ابن هشام: السيرة النبوية ج٤/ ٤٦٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج٤/ ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) آية ٩١/ النحل.

تلك المعاهدات، والتـزموا بما فيهـا من بنود. أما اليهود فلم يلتـزموا بما عاهدوا عليه، ولم يفوا به، بل ضربوا بها عرض الحائط. فكان جزاؤهم أن طردوا من المدينة.

ولما عقد صلح الحديبية بين المسلمين وقريش بنصوص أقرها الطرفان، ووقعا عليها، التزم المسلمون بعهـدهم. أما القرشيون فقد خانوا الصلح، وخرقـوا نصوصه بالاعتـداء على قبيلة مـسلمة دخلت فى عقـد وجوار المسلمين، فاستصرخت هذه القبيلة المسلمين، فأمر - ﷺ - المسلمين أن يهبوا لـنجدتها، فكان الفتح المبين، فـتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا.

* * *



الفصل الثاني: السفارة في العهد المكي.

- ظهور الإسلام ودخول فيه عدد من المكيين.
- دعوة الرسول - ﷺ - عشيرته الأقربين.
- سفارات قريش إلى رسول الله - ﷺ.
- سفارات قريش إلى أبي طالب.
- السفارات إلى الدول والبلاد المجاورة:

١ - السفارة إلى الحبشة.

٢ - السفارة إلى الطائف.

٣ - السفارة إلى يثرب (المدينة).

ظهر الإسلام، وقام الرسول - ﷺ - بالدعوة إلى الله - عز وجل - بالحسنى والموعظة الحسنة، فآمن به نفر من آل بيته: وهم «على بن أبى طالب»، وزوجه السيدة خديجة، ومولاه «زيد بن حارثة» - رضى الله عنهم.

وبدأ - عليه الصلاة والسلام - يدعو الناس إلى الإسلام سراً، فآمن به: أبو بكر الصديق، وقام هو بدعوة غيره إلى الإسلام، ممن توسم فيهم الخير والهداية، فآمن بدعوته كثيرون منهم: «عثمان بن عفان»، وعبد الرحمن بن عوف» و«سعد بن أبى وقاص»، و«أبو عبيدة بن الجراح»[1]. . . رضى الله عنهم جميعاً.

ثم دخل الناس فى الإسلام رجالاً ونساءً، حتى فشا ذكر الإسلام فى مكة، واستمرت الدعوة سرية لمدة ثلاث سنوات، كان المسلمون يلتقون فيها فى دار «الأرقم بن أبى الأرقم» - بالقرب من جبل الصفا - حتى نزل قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2]. فأظهر الرسول - ﷺ - دعوة الحق للجميع، وبدأ بعشيرته الأقربين، امتثالاً لأمر الله - عز وجل -: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[3]. فقام - عليه الصلاة والسلام - بدعوة عشيرته بالحضور فى بيته، وكلف ابن عمه: «على بن أبى طالب» - كرم الله وجهه - أن يصنع لهم طعاماً وشراباً، فلما حضروا وكانوا حوالى أربعين رجلاً - قدّم لهم واجب الضيافة، من طعام وشراب، فأكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى ارتووا؛ فلما أراد - ﷺ - أن يدعوهم إلى دعوة الحق، سبقه أبو لهب إلى الكلام قائلاً:

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١/ ١٥٥، ١٥٦.

(٢) آية ٩٤/ الحجر. (٣) آية ٢١٤، ٢١٥/ الشعراء.

«مَا لَهَدَّ[1]، ما سحركم به صاحبكم». فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله - ﷺ -.

فأعاد - عليه الصلاة والسلام - نفس الكرة فى الغد، ودعاهم، ولما حضروا، طعموا حتى شبعوا، وشربوا حتى رووا. ثم كلهم رسول الله - ﷺ -: «إنى والله ما أعلم أحداً جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟» فصمت القوم ولم يجبه أحد، وهموا بتركه. فرأى على - رضى الله عنه - احجامهم عن دعوة الحق، فقال: «أنا يارسول الله، أنا حرب على مَنْ حاربت». وعندها قام القوم ينصرفون، يضحكون ويسخرون من أبى طالب قائلين له: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[2].

وعلى ذلك فقد أُحبطت هذه الدعوة، ولم تحقق الثمرة المرجوة منها، ومع ذلك لم ييأس النبى - ﷺ - من موقف أهله من الدعوة، بل توجه إلى دعوة الناس جميعاً، فصعد على جبل الصفا، وأخذ ينادى على جميع القبائل، كلاً باسمها، فتجمعوا إليه، وقالوا: مالك يا محمد؟. فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقىَّ؟». قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً قال: «فإنى نذير بين يدى عذاب شديد»، ودعاهم - عليه الصلاة والسلام - إلى عبادة الله وحده، وترك ما يعبدون من دونه.

---

(١) لَهَدَّ: كلمة يتعجب بها، يقال: لهد الرجل أى ما أجلده فمعنى لهد الرجل: نعم الرجل أى يثنى عليه بالقوة والجلد، والمراد هنا سخرية أبى لهب من كرم الرسول - ﷺ - لهم. ابن منظور: لسان العرب ج٣/ ٧٨٠.

(٢) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٣١٩ - ٣٢١، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٦٢، ٦٣.

وكادت هذه الدعوة تثمر، وتجد قلوباً مفتوحة، لأن الصادق لا يقول إلا صدقاً، ولا يبلغ إلا الصدق، لولا أنْ قاطعه أبو لهب بقوله: تباً لك، ألهذا جمعتنا، ما كان ينبغى أن نضيع وقتنا فى هذا العبث. وانصرف الجمع على هذا[1]. فنزل قول الله - تعالى -: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[2].

وهذا الموقف أثر كثيراً فى الرسول - ﷺ - لأن الذى كان يقف فى وجه دعوته، هو: عمه، يُحرض الناس عليه. والإساءة من القريب لها أبلغ الأثر فى النفوس.

وعلى الرغم من موقف أبى لهب المعادى للدعوة، والذى يعمل جاهداً على وضع العراقيل فى طريقها، شاء الله - عز وجل - أن تجد قلوباً واعية، وآذاناً صاغية، فآمن بها عدد غير قليل، وأصبحت الدعوة الإسلامية تمثل خطراً جسيماً، على أولئك الذين تمسكوا بضلالهم، وظلوا فى طغيانهم يعمهون.

فبرغم التعذيب والاضطهاد اللذين صبتهما القبائل على مَنْ أسلم من أبنائها، إلا أن ذلك لم يثن هؤلاء عن دعوتهم، بل زادهم إيماناً وتثبيتاً، كما ازداد عدد الداخلين فى الإسلام، زيادة أرهبتهم، وأقلقت مضجعهم.

وهذا رسول الله - ﷺ -، قد سخر منهم، وسفه أحلامهم، وعاب على آلهتهم، فأرسلوا إليه عدة سفراء، ليفاوضوه فى الأمر، حتى

(١) الطبرى: تاريخ الرسل ج٢/ ٣١٩، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٦٠، ٦١، بتصرف.
(٢) سورة المسد.

يتخلى عن دعوته:

١ ـ عتبة بن ربيعة سفير قريش إلى رسول الله ﷺ :

أرسل القرشيون: عتبة بن ربيعة سفيراً لهم لدى الرسول ـ ﷺ ـ ليفاوضه في شأن الدعوة ـ وكان سيداً من سادات قريش ـ. يقول ابن إسحاق: إن عتبة قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟. وذلك حين أسلم حمزة ـ رضي الله عنه ـ، ورأوا أصحاب رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قُم إليه فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف الرفيع، والمكانة في النسب، وقد أوتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً، سودناك علينا ـ أي جعلناك فينا السيد ـ حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلْكاً، مَلَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يداوى منه.

فلما فرغ عتبة، ورسول الله ـ ﷺ يستمع إليه. قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟. قال نعم. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاسمع منى، فتلا عليه قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ...﴾[1] ثم مضى ـ ﷺ فيها يقرؤها عليه.

فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، ثم انتهى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبا الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟. قال: ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، إنه لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، إن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمثمر، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه.

يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

---

(١) آيات: ١ ـ ٥ فصلت.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج١/ ١٧٥، ١٧٦، ابن كثير: البداية والنهاية ج٣/ ٦٣، ٦٤، الحلبى: السيرة الحلبية ج١/ ٣٢٩ وما بعدها.

وفى هذه السفارة عرض سفير قريش على المصطفى - ﷺ عروضاً مغرية، مقابل أن يكف عن دعوته ويتخلى عنها، ولكنه وجد شخصاً لا يميل إلى دنيا، ولا يستهويه جاهٌ، ولا مالٌ، ولا سلطانٌ، وإنما يبتغى من وراء دعوته رضاء الله - عز وجل -، وتبليغ ما أمره الله بتبليغه للناس.

وعند ذلك أيقن عتبة أن النبى - ﷺ - على الحق، فمال إلى دعوته، وعاد إلى قومه يبلغهم ذلك، فسخروا منه، وقالوا له: لقد سحرك محمد بلسانه. ولكن محمدا - ﷺ - ليس بساحر ولا شاعر، وإنما هو رسول الله، أرسله الله بالهدى، ودينُ الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1].

٢ - قريش ترسل سفارة أخرى إلى رسول الله - ﷺ -:

أرسل القرشيون سفارة ثانية إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - يذكر المؤرخون: أن نفراً من المشركين قد توجهوا إلى رسول الله - ﷺ - فيهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأمية بن خلف[2]. فعرضوا عليه أن يعطوه من المال حتى يكون أكثرهم مالاً، وأن يُزوِّجوه أجمل أبكارهم، على أن يكف عن شتم آلهتهم، وتسفيه عاداتهم. فلما رفض عرضهم، وتمسك بدعوة الحق. قالوا: فتعبد آلهتنا يوماً، ونعبد إلهك يوماً، فأبى ذلك أيضاً. ونزل عليه قول الله - سبحانه وتعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[3].

---

(١) آية ٣، ٤/ النجم.

(٢) لمعرفة باقى أسماء هذه السفارة، أنظر ابن هشام: السيرة ج١/ ١٧٦.

(٣) سورة الكافرون.

٣ ـ أشراف مكة يقومون بسفارة إلى رسول الله ـ ﷺ :

قام أشراف مكة بسفارة ثالثة إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأعادوا المحاولة التى قام بها عتبة بن ربيعة فى السفارة الأولى، فتوجهوا إليه، وعرضوا عليه السلطان، والمال، والطب، إن كان هذا الذى يأتيه من مس الجن.

فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام: «ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به، أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً، بلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم».

فقالوا له: فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذى بعثك به فَلْيُسيِّر عنا هذه الجبال، التى قد ضيقت علينا، وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن بعث لنا منهم: قُصى بن كلاب، فإنه شيخ صدق، فنسألهم عما تقول. أحق هو أم باطل... وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغى. فإن صنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا منزلتك من الله، وإنه بعثك رسولاً لما تقول. فقال لهم ـ ﷺ : «ما أنا بفاعل، وما أن بالذى يسأل ربه هذا».

ثم طال بينهم كلام وخصام. قالو بعده: إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا، رجل فى اليمامة، يقال له: الرحمن؛ وإنا والله لا نؤمن بالرحمن

أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك، وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا؛ ثم قاموا وانصرفوا[1].

ولما لم تُجْدِ معه هذه السفارات، وفشلت فى الوصول إلى حل يرضيهم، اتجهوا إلى عمه أبى طالب، الذى كان بمثابة السد المنيع، الذى يحول بينهم وبين رسول الله - ﷺ - فلا يستطيعون أن يمسوه بسوء، لحمايته له. يذكر ابن هشام: أن قريشاً تذامروا بينهم على مَنْ فى القبائل منهم، من أصحاب رسول الله - ﷺ - الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويُفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبى طالب. وقام أبو طالب فدعى بنى هاشم وبنى المطلب إلى حماية رسول الله - عليه الصلاة والسلام - والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك[2].

وعلى ذلك كانت قريش لا تستطيع أن تنال من النبى - ﷺ - لحماية عمه، الذى كان من سادات قريش وكبيرها، الذى لا يقطعون أمراً دون الرجوع إليه، والذى يُعمل له ألف حساب. فبعثوا إليه عدة سفارات يُوغرون صدره على ابن أخيه، حتى يتخلى عن نصرته.

سفارات قريش إلى أبى طالب:

١ - أبو سفيان يقود سفارة إلى أبى طالب:

قام بهذه السفارة رجال من قريش، على رأسهم أبو سفيان بن حرب، وتوجهوا إلى أبى طالب يشكون إليه ابن أخيه محمداً - ﷺ - قائلين له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنه، وإما أن تخلى بيننا وبينه.

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١/ ١٧٦ وما بعدها، الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٣٣٧.
(٢) السيرة ج١/ ١٦٢.

فردهم أبو طالب رداً جميعاً[١]. ومضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعوته، وازداد مضيه واقدامه يوماً بعد يوم.

٢ ـ أشراف مكة يقومون بسفارة أخرى إلى أبى طالب:

توجه أشراف مكة إلى أبى طالب فى سفارة له، يشكون إليه الرسول ـ ﷺ ـ، وذلك أنهم رواه ماضياً فى نشر دعوته، وازداد مضيه يوماً بعد يوم، ولم يعبأ بهم، ولم يمنعه عمه، وقد شكوه إليه من قبل.

لهذا ضاقوا به ذرعاً، ولم تطق نفوسهم ذلك، فمشى القرشيون إلى أبى طالب، وأخذوا معهم، عمارة بن الوليد بن المغيرة ـ وكان شاباً فتياً قوياً ـ وطلبوا إليه أن يسلمهم محمداً، ويتركوا له عمارة، ليتخذه ولداً، فسخر أبو طالب من رأيهم قائلاً لهم: «والله لبئس ما تسومونى، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه، هذا والله لا يكون أبداً»[٢].

وبهذا لم يجبهم إلى ما يريدون. فانصرفوا وقد خاب مسعاهم، وفشلت سفارتهم.

٣ ـ سفارة ثالثة إلى أبى طالب:

عندما نفد صبر القريشيين، وضاقت صدورهم، وأعيتهم الحيل، وطفح الكيل، ذهبوا إلى أبى طالب متوعدين، فقالوا له: «يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإن والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين»[٣].

---

(١) المصدر السابق ج١/ ١٦٠، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٦٣.
(٢) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٣٢٦، ٣٢٧، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٦٤، ٦٥.
(٣) ابن هشام: السيرة ج١/ ١٦١.

وأمام هذا الموقف صـار أبو طالب فى حيرة من أمره، فـقد خُيِّر بين أمرين أحلاهما مر، فإما أن يترك ابن أخـيه لقريش تصنع معه ما تشاء، حتى تقضى على دعوته، وإما أن يقف وجهاً لوجه أمام قريش فى حرب دامية، لا يعرف مداها إلا الله.

ولهذا استدعى محمداً - ﷺ -، وعـرض عليه ما عرضته قريش، ثم قال له: فابق علىّ وعلى نفسك يا ابن أخى، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق[1].

فظن رسول الله - ﷺ - أن عمه سيـخذله أمام الضغط العنيف من المشركين، ويتخـلى عن نصرته، فقال: «والله يا عم لو وضـعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أُهلك فيه، ما تركته».

ورأى أبو طالب تمسك ابن أخيه بـدعوته، والإصرار على المضى فى طريق نشرها، مهما كلفه النفس والنفيس، فأعجب به، وثارت فى نفسه عاطفة قـوية غلابة لمؤازرته. فقال له - وقد رآه يخرج منصـرفا -: أقبل، ثم قال له: اذهب يا ابن أخى فـقل ما أحـببت، فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً[2].

وأصر أبو طالب على نصرة محمـد، والدفاع عنه، وأخبر بنى هاشم وبنى المطلب عن قـول الرسول - ﷺ -، وموقفـه. ثم طلب منهم أن يمنعوه من قريش. فاستجابـوا له جميعاً، ما عدا أبو لهب[3]، فإنه أمعن فى غيـه وضلاله، وصارحهم بالـعداوة إلى محمـد وأنصاره. وفى ذلك

---

(١) ابن هشام: مصدر سابق ج١/ ١٦١.

(٢) نفس المصدر السابق، الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٣٢٦.

(٣) ابن هشام: المصدر السابق ج١/ ١٦٢.

يقول أبو طالب من قصيدة طويلة:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة وأبيض غضب من تراث المقاول

واحضرت عند البيت رهطى وأخوتى وأمسكت من أثوابه بالوصائل[1]

٤ ـ قادة قريش يقودون سفارة رابعة إلى أبى طالب:

عندما قامت قريش بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب، فلا يبيعونهم ولا يشترون منهم، ولا يتزوجون منهم، ولا يزوجونهم، حتى يسلموا إليهم محمداً. ولهذا خرج أبو طالب ببنى هاشم والمطلب إلى شعبه خارج مكة. وأمام هذا الحصار الاقتصادى الاجتماعى صمد مشركهم قبل مسلمهم، ورفضوا تسليم محمد.

وبالتالى فلم تثن هذه المقاطعة المسلمين، عن نشر دعوتهم، فمضوا فيها، وأقبل عليها الكثير، ودخل فى الإسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، وهما فارسان معدودان، كانت قريش تخشى بأسهما، فعلم المشركون أن الهدف من المقاطعة أتى بنتائج عكسية، فأنهوا ذلك الحصار الذى استمر ثلاث سنوات.

وخرج أبو طالب من هذا الحصار، وقد تقدمت به السن، ووهن عظمه، وأثرت فيه الخطوب، فمرض مرضاً شديداً فخاف المشركون سوء سمعتهم فى العرب، إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا أن يفاوضوا النبى - ﷺ - بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه

(١) ابن هشام: مصدر سابق ج١/ ١٦٥.

قبل ذلك، فوفد عليه وفد منهم.

قال ابن إسحاق: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقله. قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يغلبونا أمرنا.

ومشوا إلى أبى طالب فكلموه قائلين له: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوّفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فَخُذْ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه.

فأرسل أبو طالب إلى رسول الله - ﷺ -، ولما حضر قال له: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره برغبتهم فى عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال - عليه الصلاة والسلام -: «كلمة واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم».

فلما سمعوا ذلك وقعوا فى حيرة، فلم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة النافعة.... ثم قال أبو جهل: نعم، وأبيك وعشر أمثالها. قال رسول الله - ﷺ -: «تقولون لا إله إلا الله، وتتركون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن نجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا[1].

(١) ابن هشام: مصدر سابق ج٢/٢٦٣، ٢٦٤، الحلبى: السيرة ج١/٣٧٩، ٣٨٠.

وفى هؤلاء نزل قول الله ـ تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ. كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ. وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ. وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ. مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾[1].

وعلى ذلك تكون هذه السفارة قد باءت بالفشل، ولم تحقق الغرض المنشود منها.

أبو طالب يُوصى بمحمد خيراً:

شعر أبو طالب أمام رفض القرشيين، اتباع طريق الهدى، ونطقهم كلمة التوحيد، بخطر شديد يحيط بابن أخيه، محمد ـ ﷺ ـ، ولا سيما بعد رحيله، فأوصى قريشاً عامة، وأعمام النبى ـ ﷺ ـ به خاصة، وهو على فراش الموت، إذ جمعهم فقال لهم:

«يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم إليكم الوسيلة، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية (الكعبة)، فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش.

صلوا أرحامكم فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل، وزيادة فى العدد، واتركوا البغى والعقوق، فبهما هلكت القرون قبلكم، أجيبوا الداعى، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم

---

(١) آيات ١ ـ ٧/ ص.

بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة فى الخاص، ومكرمة فى العام.

وإنى أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين فى قريش، والصديق فى العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش، وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها.

يا معشر قريش: كونوا له وُلاَةً، ولحزبه حُماةً، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد؛ ولو كان لنفسى مدة، ولأجلى تأخير، لكففت عنه الهزاهز - الفتن -، ولدفعت عنه الدواهى)[1].

وكان المرشح لحمل زعامة بنى هاشم بعد أبى طالب: أبا لهب، فوعد أبا طالب وهو فى الأيام الأخيرة من عمره، بحماية النبى - ﷺ ، وقال للرسول - عليه الصلاة والسلام -: «أعمل كما كنت تعمل فى حياة أبى طالب، فباللات لن يمسك أحد بضر ما دمتُ حياً»[2].

غير أن ذلك الوعد لم يكتب له البقاء إلا أياماً قلائل، عادت بعدها عداوة أبى لهب للنبى - ﷺ - من جديد، واستمر على ذلك حتى

(١) د. عبد الفتاح شحاته: تاريخ العرب وصدر الإسلام ق٢/ ٧٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات ج١ ق ١/ ١٤١.

مات[1].

اطمأن أبو طالب لسماعه وعد أبى لهب بحماية الرسول - ﷺ -، وأنه لن يمسه سوء ما دام حياً، ثم لم يلبث أن وافته المنية فى العام العاشر من البعثة النبوية؛ ثم توفت فى هذا العام زوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها -، فحزن عليها رسول الله - ﷺ - حُزناً شديداً.

ونالت قريش من أذى النبى - ﷺ - ما لم تكن تطمع فيه فى حياة عمه أبى طالب. لذا قال - ﷺ -: «ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[2].

(١) د. عبد الفتاح شحاته: مرجع سبق ذكره ق٢/ ٧٥.
(٢) الطبرى: مصدر سابق ج٢/ ٣٤٤، المقريزى: امتاع الأسماع ج١/ ٤٩.

السفارات إلى الدول والبلاد المجاورة

أرسل الرسول - ﷺ - إلى الدول والبلاد المجاورة، عدة سفارات، لدعوة أهلها إلى الإسلام، فكانت سفارة الحبشة، وسفارة الطائف التى قام بها النبى - عليه الصلاة والسلام - ومعه مولاه زيد بن حارثة - رضى الله عنه -، وسفارة يثرب.

١ - السفارة إلى الحبشة:

وجد النبى - ﷺ - أن صحابته يلاقون من المشركين أشد العذاب والاضطهاد، وقد قعد لهم الكفار كل مرصد. فعز عليه أن يراهم على هذه الصورة، وهو لم يقدر أن يصنع لهم شيئاً، كما أنهم كانوا عاجزين عن حماية أنفسهم، ودفع الضر عنهم.

فأشار - عليه الصلاة والسلام - على صحابته أن يفروا بدين الله إلى أرض الله، فسألوه إلى أى البلاد نسير؟. فأجاب: إلى الحبشة. وعلل ذلك بقوله: «لأن فيها ملك لا يُظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً»[1].

وعلاوة على ذلك كان هناك من الأسباب الأخرى، التى جعلت رسول الله - ﷺ - يختار الحبشة دون غيرها من البلاد. فالحبشة ترتبط بروابط تجارية مع أهل مكة، وأنهم يقدرون المكيين ويعتبرونهم أهل الله، الذى حماهم من ظلم المعتدين، وحمى بيته الحرام من اعتداء أبرهة عليه. وهذه الحادثة كانت ما زالت عالقة فى أذهانهم. كما أن الحبشة

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١/١٩٧.

تدين بالنصرانية، وهى دين سماوى، وهو أقرب الديانات الأخرى إلى الإسلام.

أما الدول والقبائل الأخرى كيثرب فلم يخترها الرسول - ﷺ - لوجود اليهود فيها، وهم لهم علاقة بالقرشيين فلا يؤمن مكرهم، وكذلك القبائل الأخرى لها روابط مع مكة، ولا تستطيع أن ترد لها طلبا.

سارت أول سفارة إسلامية إلى بلاد الحبشة، وكان أفرادها أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة منهم: عثمان بن عفان وزوجه: رقية بنت محمد رسول الله - ﷺ -، وأبو حذيفة وزوجه: سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة وامرأته: أم سلمة، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام... وغيرهم[1].

خرجوا سراً فى رجب سنة ٥ من البعثة النبوية المباركة، أى فى سنة ٦١٥م؛ متسللين حتى وصلوا البحر الأحمر، فتصادف وجودهم مجىء سفينة تجارية، فركبوها، مقابل نصف دينار عن كل راكب[2]. فانطلقت بهم تجرى فى أمان الله حتى أوصلتهم إلى الحبشة.

ولما علمت قريش بخبر هذه السفارة، راعهم الفزع، وتملكهم الخوف، وساءهم أن ينشر هؤلاء السفراء، الدعوة الإسلامية فى أرض الحبشة، فيكسبون بذلك عزاً وقوة، فأسرع فرسانهم يتعقبونهم، غير أنهم لم يلحقوا بهم[3].

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١/ ١٩٧، ابن سعد: الطبقات ج١ ق ١/ ١٣٦، ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ٤٤. وفى هذه المصادر باقى أسماء هذه السفارة.

(٢) ابن حجر: فتح البارى ج٧/ ١٨٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات ج١ ق١/ ١٣٦.

وفى أرض الحبشة أقام المسلمون فى خير جوار من ملكها النجاشى، الذى عرف بالعدل والحلم. فاستشاط القرشيون غضباً، وجن جنونهم، فصبوا العذاب صباً على المسلمين فى مكة، يريدون بذلك أن يقضوا على الفئة المؤمنة، أو صرفها عن دينها.

السفارة الثانية إلى الحبشة:

أمام موقف القرشيين المتشدد من المسلمين، أشار الرسول - ﷺ - على أصحابه أن يتوجهوا إلى الحبشة فى سفارة ثانية، حتى يجعل الله من أمرهم فرجاً ومخرجاً، ويعز دينه، فسارت السفارة تضم ثلاثة وثمانين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة[1]، حتى وصلوا فى رعاية الله وأمنه إلى الحبشة.

وهناك أكرم النجاشى - ملك الحبشة - مثواهم، وعاملهم معاملة طيبة، تنم عن تقديرهم وتبجيلهم. وفى أرض الحبشة أعلن المسلمون عبادتهم، لا يخشون شراً، وأقاموا على خير جوار، واشتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة، وكانوا قدوة حسنة للسلوك الطيب، ومثالاً للمعاملة الكريمة، فاحترموا قوانين البلاد وأهلها، فأحبهم أهلُها وبادلوهم نفس المعاملة.

سفارة قريش للنجاشى:

علم القرشيون بما يلاقيه المسلمون فى الحبشة من معاملة حسنة، وأنهم يباشرون شعائر دينهم بحرية وأمان ويقومون بدعوة الأحباش إلى الإسلام، فساورهم القلق والخوف، واتفقوا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشى، ليخرجهم من بلاده، ووقع الاختيار

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١/٢٠٣، المقريزى: امتاع الأسماع ج١/٤٨.

على عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة، ليقوما بهذه السفارة، وحملوهما هدايا نفيسة للملك ورجال بطارقته.

انطلق السفيران حتى وصلا بلاد الحبشة، فقدما الهدايا للبطارقة وللنجاشى. وقالا له: «أيها الملك أنه قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت؛ وقد بعثنا أشراف قومهم لتردهم عليهم، فهم أعلم بهم وبما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه»[1].

وحين فرغ السفيران من تأدية الرسالة، أبى النجاشى أن يرد المسلمين، ويخون عهد الجوار والأمان، الذى أعطاه لهم، دون أن يسمع منهم، فقال: «لا والله لا أسلمهم إليهما، قوم جاورونى ونزلوا فى بلادى، واختارونى على من سواى، حتى أدعهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإن كان كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاورونى».

ثم أرسل إلى المسلمين، فجاءوا، فقال لهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟. فأجابه جعفر بن أبى طالب قائلاً: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الرحم، ونُسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة

---

(١) ابن هشام: مصدر سبق ذكره ج١/٢٠٦.

والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، ونهانا عن الفواحش... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله.. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا على ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك.

فقال النجاشى: هل معك مما جاء به من عند الله شىء تقرؤه علىّ؟. قال: نعم. وتلا عليه جعفر صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشى حتى ابتلت لحيته، ثم قال: إن هذا والذى جاء بهُ عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة. ثم التفت إلى سفيرى قريش وقال لهما: انطلقا فلا والله أسلمهم إليكما[1].

وهكذا باءت سفارة القرشيين بالفشل، وخاب مسعاهم. ففكر عمرو ابن العاص فى حيلة أخرى، وهو المشهور بالدهاء[2]، عله يظفر بهم، فقال لرفيقه بعد ما خرجا من مجلس النجاشى: والله لآتينه غداً بما استأصل به خضراءهم، فقال له: عبد الله بن أبى ربيعة، لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وأن كانوا قد خالفوا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

فلما كان الغد توجه عمرو إلى النجاشى فقال له: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فسلهم عنه، فطلبهم.

فلما حضروا سألهم قائلاً: ماذا تقولون فى عيسى بن مريم؟. فأجاب جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا: وهو عبد الله ورسوله،

(١) الحلبى: السيرة الحلبية ج١/ ٣٧٠.
(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٣٢٢.

وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. . وقد بشرت رسالته برسالة الإسلام، قال تعالى على لسان عيسى بن مريم للحواريين: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1]. فاقتنع النجاشى بقولهم، وعلم أنهم على حق، وأن رسالة الإسلام التى جاء بها محمد - ﷺ - من عند الله. فآمن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[2]. وقال للمسلمين: فأنتم آمنون فى أرضى، وأمر لهم بطعام وكسوة؛ ورد هدايا قريش إلى سفيريها اللذين أصابهما الفشل الذريع فى مهمتهما؛ فعادا خائبين[3].

وعاش المسلمون إلى جوار النجاشى فى أمن وسلام، واستقروا حتى أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة. فعاد جماعة منهم قدرها ابن سعد: بثلاثة وثلاثين رجلاً وثمانى نسوة.[4] وبقيت جماعة منهم فى الحبشة حتى سنة ٧هـ/ ٦٢٨م. أرسل الرسول - ﷺ - إلى النجاشى فى طلبهم، فعادوا وقد فتح الله على المسلمين خيبر، فسر بهم رسول الله - عليه الصلاة والسلام - أيما سرور، وقال مُعرباً عن ذلك: «والله ما أدرى بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[5].

نتائج هذه السفارة:

كان لهذه السفارة أعظم الآثار، فقد كفلت للمهاجرين الحرية فى مباشرة شعائرهم، بعيداً عن الخوف والاضطهاد فى مكة، كما جعلت

---

(١) آية ٦/ الصف.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج٣/ ٧٠.
(٣) ابن هشام: السيرة ج١/ ٢٠٦ - ٢٠٨، الحلبى: السيرة ج١/ ٣٦٨، ٣٦٩.
(٤) الطبقات الكبرى ج١/ ق١/ ١٣٩.
(٥) ابن هشام: مصدر سابق ج٣/ ٢٧٠.

السفراء الدعاة يتضرعون لدعوة الأحابيش إلى الإسلام، فهدى الله مَنْ شرح صدره للإسلام منهم فأسلم، وكان على رأس هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام النجاشى... ولما مات نعاهُ رسول الله - ﷺ - للصحابة، ثم خرج بهم إلى المصلى، فصلى عليه[1]. كما دخل فى الإسلام عدد من بطارقته ورجال دولته.

وكذلك وفد على رسول الله - ﷺ - أول وفد من خارج مكة، لفهم الإسلام، وكانوا بضعة وثلاثين رجلاً من نصارى الحبشة، فلما جلسوا إلى النبى - ﷺ - واطلعوا على صفاته وأحواله، وسمعوا ما تلى عليهم من آيات القرآن الكريم، آمنوا كلهم.

وحين علم أبو جهل بإسلامهم، أسرع إليهم وقال: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال. فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً[2].

فنزل فى حقهم قول الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[3].

وأيضا كان لهذه السفارة أهمية خاصة فى تاريخ الإسلام، فإنها

---

(١) البخارى: فى صحيحه ج٣/٣٢٥ باب موت النجاشى - طبعة الحلبى - القاهرة.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٢/٢٤٥.

(٣) آيات: ٥٢ - ٥٥/ القصص.

أقنعت قريشاً بأن المسلمين لا يفتنهم عن دينهم شيء، وجعلت المسلمين الذين بقوا فى مكة صابرين على تحمل البلاء والمشقة، ولعلها خلقت فكرة البحث عن بقعة أخرى من بلاد العرب نفسها، يهاجر إليها المسلمون، فلا يتكلفون مشقة عبور البحر، ومشقة المعيشة وسط أقوام ليسوا من العرب، أى أنها مهدت لفكرة المهاجرة الكبرى إلى المدينة المنورة[1].

---

(1) د. محمد مصطفى النجار: سيرة الرسول ـ ﷺ ـ ص٣٠.

٢ ـ السفارة إلى الطائف[١]:

قام بهذه السفارة رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه زيد بن حارثة[٢] ـ رضى الله عنه ـ إلى أهل الطائف، لعل الله يهدى أهلها إلى الإسلام فيجد فيهم العوض والمنعة عن أهل مكة، الذين اشتد إيذاؤهم لصحابته وله، ولا سيما بعد وفاة زوجه وعمه أبى طالب.

وسار الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحمل المشاق، حتى بلغ الطائف، فعمد إلى نفر من ثقيف، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو. فعرض عليهم دعوته، وطلب منهم نصرته، فسخروا منه، واستهزؤا به.

فلما وجد إصرارهم وعنادهم قال لهم: اكتموا علىّ ذلك ـ كراهية أن يبلغ أهل مكة، فتزداد عداوتهم وشماتتهم ـ، ومكث ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالطائف عشرة أيام[٣]، يدعو أهلها إلى عبادة الله. ولكن دعوته لم تجد إلا آذاناً صُماً، وقلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، فلم يستجب له أحد. ولم يقفوا عند هذا الحد من الإعراض عنه، بل أغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وكان يمشى

---

(١) الطائف: مدينة مشهورة، تقع فى جنوب شرقى مكة، وتبعد عنها اثنا عشر فرسخاً. وهى موطن ثقيف. وتجود فيها الزراعة وأجودها العنب.. وتمتاز بطيب الهواء، وعذوبة الماء. وسميت بهذا الاسم: لأن رجلاً من الصدف ـ أى من حضرموت ـ نزلها وبنى حولها حائطاً يطيف بها فسميت بالطائف ـ أنظر السمعانى: الأنساب. ورقة ٦٤ (أ) مخطوط مصور، السهيلى: الروض الأُنُف ج٢/ ١٧٧، ياقوت: معجم البلدان ج٤/ ٨، ٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات ج١ق١/ ٤٢، ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ٤٦.

(٣) المصدرين السابقين، المقريزى: امتاع الأسماع ج١/ ٤٩.

منهم، فكلما رفع قدماً رموه بالحجارة، حتى سالت الدماء من أقدامه. وظلوا يتعقبونه حتى انتهى إلى حائط بستان، لعتبة وشيبة ابنى ربيعة - وهما فيه - رجع عنه سفهاء ثقيف من كان يتبعه؛ فجلس - عليه الصلاة والسلام - فى ظل كرمة عنب[1]. وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقى من سفهاء ثقيف.

ويذكر ابن سعد: أن زيد بن حارثة قد حاول الدفاع عن رسول الله - ﷺ - ويقيه بنفسه حتى شج فى رأسه[2].

واستوحش النبى - ﷺ - لهذا الحاضر المرير وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التى عاناها مع أهل مكة، إنه يجر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة، فأخذ يناجى ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى: إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى؟. إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك، أو يحل علىّ، لك العقبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[3].

وتحركت عاطفة القربى فى نفس ابنى ربيعة، فأرسلوا غلاماً لهما، يسمى عدّاس، بقطف من العنب إلى رسول الله - ﷺ - فلما أعطاه عدّاس، تناوله الرسول - عليه الصلاة والسلام. ومد يده قائلاً: بسم الله، ثم أكل، فقال: عداس إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

---

(١) السهيلى: الروض الأنف ج٢/١٧٧، الحلبى: السيرة ج١/ ٣٨٤، ٣٨٥.
(٢) الطبقات ج١ ق١/ ١٤٢، ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ٤٦.
(٣) ابن هشام: السيرة ج٢/ ٢٦٥، ابن القيم: زاد المعاد ج٢/ ٤٦، ٤٧.

فقال رسول الله - ﷺ : «ومن أى البلاد أنت، وما دينك؟». قال عداس: أنا نصرانى من أهل نينوى. فقال له - عليه الصلاة والسلام: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟. فقال: وما يدريك ما يونس بن متى؟. قال رسول الله - ﷺ -: «ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى». فأكب عداس يقبل رأس النبى - ﷺ - ويديه وقدميه.

فلما رأى ابنى ربيعة ذاك، قال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. وجاء عداس فقالا له: ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟. قال يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى. فقالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[١].

فحاول الرجلان توهين أمر محمد - ﷺ - وتمسك الرجل بدينه القديم، وكأنما عزّ عليهما أن يخرج - عليه الصلاة والسلام - من سفارته هذه بأى كسب[٢].

وعاد النبى - ﷺ - وترك حائط بستان ابنى ربيعة حزيناً، كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل، بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين[٣] على المشركين.

فقال - ﷺ -: «.. بل أرجو أن يخرج الله - عز وجل - من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له، ولا يشرك به شيئاً»[٤].

---

(١) المصدر السابق الأول ج٢/ ٢٦٦، الطبرى: تاريخ الرسل ج٢/ ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) الشيخ محمد الغزالى: فقه السيرة ص١٣٦.

(٣) الأخشبان: جبلان بمكة، أبو قبيس، ويقابله: قعيقان - ياقوت: معجم البلدان ج١/ ١٢٢.

(٤) الإمام مسلم: فى صحيحه بشرح النووى ج٦/ ١٦٣، ١٦٤ كتاب المغازى باب ما لقى النبى - ﷺ - من أذى المشركين.

وقد تحقق رجاء النبى ـ ﷺ ـ فخرج من أصلاب المشركين أبطال دخلوا فى الإسلام، وضربوا أروع الأمثال فى نشر دعوته، ومن هؤلاء: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل . . . وغيرهم.

ثم تقدم الرسول ـ ﷺ ـ فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة،[1] قام فى جوف الليل يُصلى، فمر به نفر من الجن فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم مُنذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

وكان عدد هؤلاء ـ كما ذكره ابن سعد ـ سبعة[2]، ولم يشعر بهم ـ ﷺ ـ حتى أخبره الله بخبرهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

وقال تبارك اسمه ـ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[4]. . . إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة.

وقد سُر رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك، وزال ما فى نفسه من حزن لصدود أهل الطائف عن دعوته، وقدم يريد مكة ليستأنف نشاطه بجد وحماس.

---

(١) وادى نخلة: مكان قريب من مكة على ليلتين منها ـ ياقوت: معجم ج٥/ ٢٧٧.

(٢) الطبقات ج١ ق١/ ١٤٢، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٩٢، المقريزى: امتاع الأسماع ج١/ ٤٩.

(٣) آيات: ٢٩، ٣٠، ٣١/الأحقاف. (٤) آية: ١، ٢/ الجن.

٣ ـ السفارة إلى يثرب (المدينة):

بعد أن عاد الرسول - ﷺ - من الطائف، ولم يستجب أهلها لدعوته، وعلمت قريش بذلك، فزادت فى طغيانها وعدوانها على المسلمين. فاتجه النبى - ﷺ - إلى نقل الدعوة خارج مكة، وذلك بعرضها على وفود القبائل فى موسم الحج كل عام، فشاء الله - تعالى - أن تجد دعوته قبولاً من نفر من أهل يثرب أتوا إلى موسم الحج سنة ١١ من البعثة، ٦٢٠م، ويلتقى بهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - عند العقبة ويعرض عليهم الإسلام، فأجابوه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وكانوا ستة أشخاص، ثم انصرفوا إلى بلادهم، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل.

وعاد هؤلاء النفر فى موسم الحج سنة ١٢ من البعثة، ٦٢١م: اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة منهم، وسبعة جدد جاءوا يعرضون إسلامهم على رسول الله - ﷺ -[١].

التقى بهم النبى - ﷺ - عند العقبة بمنى، وبايعهم على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى معروف[٢].

ومن يُمعن النظر فى شروط هذه البيعة يجد أنه - ﷺ - لم يقبل منهم مجرد النطق بالشهادتين ويتركهم فى ضلالهم وانحرافاتهم، بل دعاهم إلى التمسك بالفضائل، والمثل العالية، وحسن المعاملة، وهذه أهم

(١) المعرفة أسماء هؤلاء انظر: ابن عبد البر: الدرر ص٦٨، ٦٩.

(٢) أنظر: البخارى: فى صحيحه ج٦/ ٢٠٠ باب وفود الأنصار، ابن حجر: فتح البارى: ج٧/ ٢١٩.

معالم المجتمع الإسلامى، الذى بعث رسول الله - ﷺ - لإنشائه، فليست مهمته أن يلقن الناس كلمة الشهادة، ثم يتركهم يرددونها بأفواهم، وهم عاكفون على انحرافاتهم ومفاسدهم.

أول سفير إسلامى فى يثرب:

بعد أن تمت بيعة العقبة وانتهى الموسم، عزم الوفد على العودة إلى يثرب. رأى رسول الله - ﷺ - أن يرسل معهم أحد صحابته ليفقههم فى الدين، ويقرئهم القرآن، ويدعو مَنْ لم يؤمن إلى الإسلام، فكان ذلك الصحابى الجليل: مصعب بن عمير، أول سفير إسلامى فى يثرب.

أرسله النبى - ﷺ - إلى يثرب، فنزل على سعد بن زرارة، وعمل جهده على نشر الدعوة الإسلامية، فكان يأتى دور الأنصار وقبائلهم، فيدعوهم إلى الإسلام، فيسلم الرجل والرجلان، حتى انتشر الإسلام فى دور الأنصار كلها تقريباً، فكان مصعب يقرئهم «القرآن الكريم»، وسمى لهذا بالمقرىء[(1)]. وكان يؤمهم فى الصلاة[(2)].

وكان مصعب فى المدينة (يثرب) يدعو إلى الله على علم، وعلى بصيرة. فيروى ابن اسحاق: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب يريد به بنى عبد الأشهل، ودار بنى ظفر، فدخل دار ظفر وجلسا، فاجتمع إليهما رجال كثير ممن أسلموا، فسمع بهذا الاجتماع: سعد بن معاذ - وكان ابن خالة أسعد بن زرارة -، وأسيد بن حضير، وهما سيدا قومهما - وكانا على الشرك. قال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين، اللذان قد أتيا دارينا، ليسفها ضعفاءنا، فَازجُرْهُما وانههما عن أن يأتيا دارينا،

---

(١) المصعب الزبيرى: نسب قريش ص٢٥٤، الحلبى: السيرة ج٢/ ٩.
(٢) ابن هشام: السيرة ج٢/ ٢٧٤.

فإنه لولا أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتى، ولا أحد عليه مقدما.

فأخذ أسعد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: أن يجلس أكلمه.

فلما انتهى أسيد إليهما قال: ما الذى جاء بكما إلينا، تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته، كف عنك ما تكره؟.

فانصت الرجل، وركز حربته فى الأرض، وجلس إليهما، فعرض عليه مصعب الإسلام، وقرأ عليه القرآن، فتأثر الرجل لجلال القرآن ولروعته، ولتلاوته الجيدة - وكان مصعب صاحب صوت عذب حلو، ترقُ له الأفئدة، وتهفوا إليه الأرواح إذا قرأ القرآن -، فأشرق وجه الرجل بالإسلام، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!. كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟. قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى.

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن.. إنه سعد بن معاذ.

ثم أخذ الرجل حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟. قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد

نهيتهما، فقالا: تفعل ما أحببت، وقد حُدِّثْتُ أن بنى حارثة خرجوا إلى سعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك، ليحقروك، فقام سعد بن معاذ مُغضباً متخوفاً على ابن خالته. وأخذ حربته فى يده وخرج إليهما.

فلما رآه أسعد مُقبلاً قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. فوقف سعد عندهما فرآهما مطمئنين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فقال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رأيت هذا منى، أتغشانا فى دارنا بما نكره؟. فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رأيت أمراً رغبت فيه، وإن كرهته، عزلنا عنك ما تكره؟. قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه مصعب الإسلام، وقرأ عليه القرآن. فأشرق وجه الرجل بالإسلام قبل أن ينطق بالشهادة. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟. قالا: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. فاغتسل الرجل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذحربته، فأقبل عائداً إلى نادى قومه، ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم. قال: يا بنى عبد الأشهل. كيف تعلمون أمرى فيكم؟. قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أُمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة، إلا مسلماً ومسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعوان

الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمين، إلا ما كان من بنى أمية، ووائل، وواقف، وأوس، فإنهم لم يسلموا إلا بعد غزوة الخندق(١).

وكان الرسول - ﷺ - فى أثناء المدة التى أقامها مصعب فى يثرب، يفكر فى أمره وفى أمر المسلمين هناك، ويدعو له بالتوفيق، ولأهل يثرب بالهدى والخير، ويفكر: هل هُم أجابوا داعى الله؟، وهل يثرب ستكون مشرق النور الإلهى، وينبوع الخير الأبدى؟.

وشاء الله - تعالى - ألا يطول انتظار وتفكير رسوله فى الأمر، فعاد مصعب إلى مكة قبل موسم الحج سنة ١٣ من البعثة، ٦٢٢م يحمل إلى الرسول - ﷺ - أخبار إسلام أهل يثرب. وأن أرضهم أرض طيبة ليقام عليها دولة الإسلام، ففى أهلها من مواهب الخير، وما لهم من قوة ومنعة(٢).

ومما سبق نعلم أن هذا السفير قد بذل أقصى جهده فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية فى خارج مكة فى يثرب، فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين، واختارها الله - عز وجل - ليشع منها أنوار الإيمان على كل جهات المعمورة.

وقد ضحى مصعب بكل ما يملك فى سبيل الدعوة، وعلم أن تبليغها فرض على كل مسلم ومسلمة، واستطاع أن يُحوِّل أهل المدينة إلى الإسلام. فكان يأتيه الرجل، وقد شهر حربته وتملكه الغضب، فيتلقاه

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٢/ ٢٧٦.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٢/ ٢٧٢ - ٢٧٦، الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٣٥٥ - ٣٦٠، ابن عبد البر: الدرر ص٦٨ - ٧٠، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٩٥ - ٩٨، الحلبى: السيرة ج٢/ ١٣ - ١٥

بالحكمة والموعظة الحسنة، وما يزال يترفق به، حتى يشرح الله صدره للإسلام، فيسلم ويغمد حربته، وتخالط بشاشة الإسلام قلبه، ويقوم هو بالدعوة إليه.

وبهذا فقد نجح مصعب فى سفارته نجاحاً كبيراً، إذ أسلم على يديه خلق كثير[1]، وفد منهم ثلاثة وسبعون، رجلاً وامرأتان، اتصل بزعمائهم الرسول - ﷺ - سراً، حتى لا تعلم قريش بالأمر، فتفسد عليه خطته، وتنال المسلمين بالأذى، واتفقوا على أن يجتمعوا فى آخر موسم الحج، حتى لا يكون هناك شبهة عند القرشيين، وأن تكون المقابلة ليلاً عند العقبة.

وتم اللقاء وأعطى هؤلاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - العهود والمواثيق على السمع والطاعة والإخلاص لدين الله، واتباع أوامر الرسول، والدفاع عن الدعوة وصاحبها ضد كل معتدى وبكل وسيلة.

* * *

(١) المصعب الزبيرى: نسب قريش ص٢٥٤.

الفصل الثالث
السفارة فى العهد المدنى

- المسلمون فى المدينة المنورة وتأسيس الدولة الإسلامية بها.
- عدم وفاء اليهود بما عاهدوا الرسول - ﷺ - عليه فكان جزاؤهم الجلاء عن المدينة.
- السفارات بين المسلمين والقرشيين فى الحديبية وقيام الصلح.
- نقض قريش عهدها مع النبى - ﷺ - فكان فتح مكة.



بعد أن هاجر المسلمون والرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة، أقام - عليه الصلاة والسلام - الدولة الإسلاميـة فيها على أسس راسخة، وبنيان متين. فأقام المسجد النبوى ليكون مقراً لأداء الشعائر، وملتقى للشورى، وجامعة يتلقى فـيها المسلمون علوم الدين والدنيا، ودار ضيافـة لاستقبال الوفود التى تأتى المدينة لتعلن إسلامها أمام الرسول - ﷺ -.

وآخى بين المهاجرين والأنصـار، ليصل الأمة ببعـضها، ويحل رابطة الإخاء والدين، محل رابطة القبيلة والعصبية القبلية.

ثم عقد - ﷺ - مع اليهـود الذين يسكنون فى المدينة معاهدة أمن وسلام وحـسن جوار، وكـان أساس هذه المعاهدة: الأخـوة فى السلم، والدفـاع عن المديـنة وقت الحـرب، والتـعـاون بين الفـــريقين إذا نزلت بأحدهما شدة أو كليهما.

ونذكـر بعضـاً مما جـاء فى المعـاهدة: ". . . . وأن اليـهود أمـة مع المؤمنين، لهم دينهم، وللمسلمين دينهم، ومن ظلم أو أثم فإنه لا يوقع - أى لا يهلك - إلا نفسه وأهل بيته وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأن مـا كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار، يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن بينهم النصـر على مَنْ دهم يثـرب، وأن من خـرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى. "(١).

وهؤلاء اليـهـود لم يلتـزموا بهـذه المعـاهدة، بل نقـضـوها، وهم المشهـورون بالغدر والخيانة، ومن يقـرأ تاريخهم يرى العجب العـجاب،

(١) انظر باقى بنود المعاهدة فى سيرة ابن هشام ج٢/٣١٨ - ٣٢٠.

فهم الذين قالوا لموسى - عليه السلام: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾(1).

وهم الذين قالوا له أيضاً: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(2).

فبعد أن من الله على المسلمين بالنصر فى غزوة بدر سنة ٢هـ، امتلأت صدورهم حقدا وغيظا، وأخذوا يُحقرون من انتصارات المسلمين، ومنهم من رثى مشركى مكة بقصيدة كانت شرارة، عرف منها المسلمون ما يكنه هؤلاء من شر لهم، ومنهم من دخل فى الإسلام وهو منه برىء، وعلى رأس هؤلاء: عبد الله بن أُبَىّ بن سلول.

وأمام ذلك كان لابد من تخليص المدينة من شر هؤلاء وخطرهم، وذلك بإجلائهم عنها، حتى يستريح المسلمون من شرهم. **فكان جلاء يهود بنى قينقاع**. وذلك أن الرسول - ﷺ - علم أنهم يعزمون على نقض المعاهدة مع المسلمين، فجمعهم فى سوق قينقاع، وحذرهم عاقبة البغى، ونكث العهود، ثم دعاهم إلى الإسلام، ولكنهم استخفوا بوعيده ودعوته(3).

وفى يوم ذهبت امرأة من نساء الأنصار إلى سوق بنى قينقاع، وباعت بعض السلع، ثم جلست إلى صائغ منهم، فجعل اليهود يراودونها عن

---

(1) من آية ٦١/ البقرة.

(2) من آية٢٤/ المائدة.

(3) انظر التفاصيل فى ابن هشام: السيرة ج٣/ ٣٣، والطبرى: تاريخ الرسل ج٢/ ٤٧٩، ابن عبد البر: الدرر ص١٤٢.

كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها بشوكة، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحك اليهود، فصاحت المرأة صيحة انخلع لها قلب مسلم كان قريبا منها، فهب لنجدتها ووثب على الصائغ وقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه.

فغضب رسول الله - ﷺ - لذلك، وخرج لحصارهم فى نصف شوال سنة ٢هـ/ ٦٢٣م، وأمر بتشديد قبضة الحصار عليهم، واستمر الحصار قائما مدة خمسة عشر يوما[١] نزلوا بعدها على حكمه، فاستشار كبار الصحابة فى قتلهم فقام إليه عبد الله بن أُبىّ فشفع فيهم، فقبل رسول الله - ﷺ - شفاعته ووهبهم له[٢].

ومع هذا لم يكفوا عن تدبير المكائد والمؤامرات ضد المسلمين، مما جعل النبى - عليه الصلاة والسلام - يتوجه إليهم، ويفرض الحصار عليهم. ولما رأوا أنهم عاجزين عن مقاومة المسلمين، سألوا رسول الله - ﷺ - أن يخلى سبيلهم، فيخرجوا من المدينة. فخرجوا إلى الشام.

وهذه نهاية كل خائن. فالخائن لابد وأن يكتشف أمره، ويفتضح سره، ويقع فى شر أعماله **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾**[٣].

وأما يهود بنى النضير: فقد أرادوا أن يتخلصوا من شخص الرسول - ﷺ -، عندما ذهب إليهم فى جماعة من أصحابه، يستعينهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما: عمرو بن أمية الضمرى، لوجود عقد حلف بين بنى النضير وبنى عامر.

---

(١) الحلبى: السيرة الحلبية ج٢/ ٢٢١.

(٢) نفس المصدر السابق، ابن عبد البر: مصدر سابق ص١٤١.

(٣) من آية ٤٣/ فاطر.

فلما أتاهم - عليه الصلاة والسلام - تظاهروا بالقبول، وطلبوا منه الجلوس إلى أحد جدرانهم، وتآمروا عليه، بأن يقوم أحدهم بإلقاء صخرة عليه من فوق السطح. فجاء الوحى وأخبر الرسول - ﷺ - بما عزم عليه هؤلاء اليهود، فانصرف وتبعه صحابته، فأخبرهم بذلك. وأمرم بالتهيؤ لحربهم.

وقبل أن يتوجه إليهم، أرسل لهم محمد بن مسلمة، يبلغهم أمر رسول الله - ﷺ - بالخروج من المدينة، لنقضهم العهد المبرم بينهم وبين المسلمين، وأعطاهم عشرة أيام يرحلون فيها، ومن رئى بعد ذلك منهم ضربت عنقه[1].

وبينما هم يستعدون للخروج إذ أطمعهم المنافقون وعلى رأسهم: عبد الله بن أبى، فطمعوا فى نصرة القوم، ومضت المدة المحددة للجلاء، فتقدم لهم الجيش الإسلامى وحاصرهم، وامتد ذلك الحصار إلى خمسة عشر يوما[2] أيقنوا بعدها أن المنافقين خدعوهم، وتخلوا عنهم، فطلبوا الجلاء على أن ينجوا بأنفسهم ويتركوا الأموال والأمتعة، فوافق النبى - ﷺ - فخرجوا ونزل بعضهم خيبر، والآخر قصد الشام[3].

وأما يهود بنى قريظة: فقد خانوا المعاهدة التى وقعوها مع رسول الله ﷺ حيث قاموا بإمداد جيش المشركين فى غزوة الأحزاب سنة ٥هـ/ ٦٢٦م بالمعونات وانضمامهم إليهم.

فما أن انتهت غزوة الخندق هذه، وما كاد يضع المسلمون أسلحتهم، حتى جاء جبريل إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - يأمره بالتوجه إلى

(١) ابن سعد: الطبقات ج٢ ق١/ ٤١ بتصرف.

(٢) الطبرى: مصدر سابق ج٢/ ٥٥٣، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ٥٠.

(٣) ابن هشام: مصدر سابق ج٣/ ١٣٩، ابن الأثير: مصدر سابق ج٢/ ١٧٣.

بنى قريظة، لمعاقبتهم على خيانتهم، فأمر الرسول - ﷺ - المسلمين بالمسير إليهم.

ولما علموا بذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب، فتحصنوا داخل حصونهم، وأحكم المسلمون قبضة الحصار عليهم، الذى امتد إلى ما يقرب من شهر[1]، لم يجرؤ أحد منهم أن يخرج من الحصن ولو مرة واحدة، فأيقنوا الهلاك، فأرسلوا إلى رسول الله - ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير، بالجلاء، تاركين الأموال والسلاح، فلم يقبل منهم، وحكَّمَ فيهم رجل من الأنصار هو: سعد بن معاذ. فظنوا أن يشفع فيهم كما شفع ابن أبى فى يهود بنى قينقاع. ولكنه حكم فيم: أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى النساء والذرارى. فقال له رسول الله - ﷺ: "لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات"[2].

وهكذا كانت نهاية الغدر والخيانة فى كل عصر وأوان: القتل، لأن الخائن لو مُنَّ عليه بشىء آخر سوى القتل، فإنه لا يتوب، ولا يرجع عما جُبل عليه، وانطبعت نفسه عليه، وسرى فى شرايينه دماء الغدر. هل يقطع الإنسان ذيل الحية ويتركها؟!. كلا. إذ لو تركها لهجمت عليه بشراسة وفتكت به. وهؤلاء إن وُهِبَت الحياة لهم لم تهدأ نفوسهم، حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد، ويجمعوا العرب لقتال المسلمين.

وبقتلهم لم يبق فى المدينة لليهود صوت قط، واستراح المسلمون، واطمأنوا ألا تقوم لهم قائمة بعد ذلك. واستتب الأمن استتباباً جعل العرب تخافهم أشد الخوف، وتعمل لهم ألف حساب.

---

(١) الطبرى: مصدر سبق ذكره ج٢/ ٥٨٣.

(٢) البخارى فى صحيحه ج٢/ ١٧٦ باب إذا نزل العدو على حكم رجل. طبعة الحلبى - القاهرة.

السفارات بين المسلمين والقرشيين فى الحديبية

أرسلت قـريش عدة سـفراء إلى المسلمين عندمـا علموا بـتحركـهم ووصولهم إلى مكان الحديبية[1] قاصدين مكة. فأرسلوا:

ـ مكرز بن حفص سفيراً لهم لدى المسلمين:

انطلق مكرز يريد الحديبية حيث المـعسكر الإسلامى، فلما انتهى إلى رسول الله ـ ﷺ وعلم منه أنهم جاءوا للعمْـرة، ولم يقصدوا سواها. فعاد وأبلغ قريشا بذلك، ولكنها لم تصـدقه، وباءت مساعى هذا السفير بالفشل.

٢ ـ الحُلَيْس بن علقمة سفيراً لقريش:

سيـر القرشيـون سفيرا آخـر إلى رسول الله ـ ﷺ ليتـبين حقيـقة مقصده، فوقع اختيارهم على: الحُلَيْس بن علقـمة ـ سيد الأحابيش[2] ـ وكانوا يقصدون من إرساله أنه إذا رأى النبى ـ ﷺ ـ لا يسمع له، ولا يتفـاهم وإياه، ازداد لقريش نصـرة فزادهم على المسلمين قـوة. فلما رآه رسول الله ـ عليه الصـلاة والسلام ـ أمر بالهدى أن تطلق أمـامه، لتكون دليلاً مادياً على أن المسلمين جاءوا للعمرة، فلما رآها الحليس تسيل عليه من عرض الوادى، قد تآكلت أوبارها من طـول الحبس، فأثر منظرها فى

---

(١) الحديبية: قرية متوسطة الحجم، سميت باسم البئر التى تحيط به، بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل ـ انظر: ياقوت: معجم البلدان ج٢/ ٢٢٩.

(٢) الأحابيش: قوم من الـعرب رماة، سموا بذلك لاسـودادهم أو لتجمعـهم، أو نسبة إلى حبشى: جبل بأسفل مكة ـ ابن منظور: لسان العرب ج٢/ ٧٥٤.

نفسه، وأيقن أن قريشاً ظالمة لمنع هؤلاء من أداء شعائرهم. ورجع إلى قريش دون أن يلقى رسول الله - ﷺ - وبين هذا السفير مقصد المسلمين من الذهاب إلى مكة وهو العمرة، ولكن قريشاً أبت ألا تستجيب لقوله[1].

٣ - قريش ترسل عروة بن مسعود سفيراً ثالثاً للمسلمين:

أرسل القرشيون عُروة بن مسعود الثقفى سفيراً إلى المسلمين، ليعرف غرضهم من الزيارة، وكان عروة رجلاً حكيماً: فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وكلمه، وعرف منه أنه إنما جاء لزيارة البيت الحرام، ولم يرد حربا، كما توهمت قريش. فعاد وأخبر القرشيين بذلك، لكنهم كانوا فى حيرة من أمرهم[2].

الرسول - ﷺ - يُرسل سفارة لقريش:

أرسل - ﷺ - رسلاً من قبله يبلغون قريشاً ما يريد. **فبعث:**

١ - خراش بن أمية:

سار خراش متوجاً إلى مكة ليعلم أهلها بحقيقة مجىء المسلمين، وكان يركب جملاً، فلما بلغهم وعرفوا مقصده، تعرضوا له، وهموا بقتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله[1] وعقروا جمله.

والمتأمل هنا يجد أن السفراء لا تقتل، ولا تعامل معاملة سيئة، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعى.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل ج٢/٦٢٨، المقريزى: إمتاع الأسماع ج١/٢٢٢.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٣/٢٣٣، ٢٣٤، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/١١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٢/٢٠٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج٤/١٦٧.

٢ ـ الرسول ـ ﷺ ـ يرسل عثمان سفيراً لقريش:

على الرغم مما فعله القرشيون مع السفير السابق: خراش، إلا أن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكر فى إرسال سفير آخر يفاوضهم، فانتدب لذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، كى يُبلِّغ عنه أشراف قريش ماجاء له، فقال عمر: يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها. وعليك برجل أعز بها منى: عثمان بن عفان.

فوجهه النبى ـ ﷺ ـ إلى أبى سفيان، وأشراف قريش، فخرج إلى مكة فلقيه حين دخلها: إبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى ينتهى من تبليغ الرسالة التى جاء من أجلها. فانطلق عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى لقى عظماء قريش فأبلغهم رسالة الرسول ـ ﷺ ـ. فسمحوا له بالطواف، فرفض قائلاً: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف رسول الله ـ ﷺ ـ. ورأت قريش أن تحبسه حتى تتشاور فى الأمر، وطال حبسها له حتى شاع بين الناس أنه قد قتل[١].

ولما علم المسلمون بهذه الإشاعة، قال النبى ـ ﷺ ـ: "لا نبرح حتى نناجز القوم" ودعا أصحابه إليه، وقد وقف تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا حتى الموت. وضرب رسول الله ـ ﷺ ـ بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان[٢] كأنه حاضر معهم.

واستعد المسلمون لمناجزة قريش لغدرها بسفير الرسول: عثمان . وإذ

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٣/ ٢٣٤، المسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٢١، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ١١٨.

(٢) البخارى فى صحيحه ج٦/ ٢٩٧، باب بيعة الرضوان، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة.

به يعود، ويخبر الرسول - ﷺ - باقتناع قريش فى زيارة المسلمين البيت الحرام وتورطهم من تصريحات المنع من دخول مكة.

قريش ترسل سُهَيْل بن عمرو سفيراً يفاوض المسلمين فى الصلح:

وإزاء ذلك أدركت قريش خطورة الموقف ودقته، فأسرع أشرافها بإرسال سفير من قبلهم، هو: سُهَيْل بن عمرو لعقد صلح مع المسلمين. وتفاوض الرجل مع الرسول - ﷺ - وأسفرت المفاوضات عن عقد صلح بين الطرفين. كان من أهم شروطه: عقد هدنة بين المسلمين والمشركين لمدة عشر سنوات، يأمن الناس فيها بعضهم بعضا، وأن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام على أن يعودوا لأداء العمرة فى العام القادم، ومن أحب أن يدخل فى عقد المسلمين دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد المشركين وعهدهم فله ذلك. ثم كتب على بن أبى طالب - رضي الله عنه - صحيفة بشروط الصلح من نسختين، وقع فيها عن المسلمين: محمد رسول الله - ﷺ -، وعن قريش سفيرها: سهيل بن عمرو، وشهد أبوبكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف.... وغيرهم. وتسلم كل فريق نسخة[1].

وهكذا نجح سهيل فى مهمته نجاحاً كبيراً، لأن الرسول - ﷺ -، كان لا يميل إلى قتال، ويحرص على أن تحل المشاكل بالطرق السلمية، حرصاً على عدم إراقة قطرة دم.

وكان هذا الصلح فتحاً ونصراً للمسلمين، إذ به اعترفت قريش بمكانة المسلمين وأهميتهم، وأنهم أهل لأن يُعقد معهم. وهذا اعتراف صريح

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج٢ ق١/٧، والمسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٢١، المقريزى: إمتاع الأسماع ج١/٢٢٨.

منهم بالدولة الإسلامية، وأتاح الفرصة للمسلمين، بأن يأمنوا جانب المشركين، وأن يختلط بعضهم ببعض، فيرى المشركون عن قرب حقيقة الإسلام ومحاسنه، وأنه دين جاء لإنقاذ البشرية من الهلاك، ولإصلاح الفرد والمجتمع. فدخل كثير من العرب فى الإسلام، إذ كان كل يوم يدخل فيه فرد أو أفراد، بينما يخسر الكافرون مثل ذلك حتى أنه لم يمض عام كامل على هذا الصلح حتى دخل فى الإسلام أكثر من الذين دخلوا فيه خلال ثمانية عشر عاما قبله. كما أمن المسلمون بهذا الصلح جانب المشركين، وارتاحوا من الحروب التى شغلتهم، وجعلهم يتفرغون لنشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وفى كل مكان فى المعمورة تمشيا مع عالمية الدعوة، ووجوب تبليغها إلى كل مكان. فأرسل الرسول - ﷺ - السفراء إلى ملوك ورؤساء العالم، يدعوهم إلى الإسلام.

وقد حافظ المسلمون على نصوص هذا الصلح مع القرشيين، والتزموا به لأن دينهم يأمرهم بالمحافظة والوفاء بالعهود قال تعالى: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾**[1]، وقال - عزّوجَل -: **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾**[2].

أما قريش فلم تحافظ على هذا الصلح، بل نقضته وذلك بمساعدتها لقبيلة بنى بكر - التى دخلت فى عقدها - بالرجال والسلاح للإغارة على قبيلة خزاعة - التى دخلت فى عقد وعهد المسلمين -.

وكان بين القبيلتين حروب وثارات قديمة، فلما تم صلح الحديبية دخلت كل قبيلة فى جوار من ارتضته، وأمن الناس بعضهم بعضا

(١) آية ٩١/النحل.
(٢) آية ٣٤/الإسراء.

واطمأنوا. غير أن الأحقاد الدفينة بينهما تيقظت من جديد، واشتعل لهيبها فى قلب بنى بكر. فأفضوا بتلك المشاعر إلى قريش فوافقت عليها، ومدتهم بالرجال والسلاح، فآغاروا على قبيلة خزاعة وأخذوها على غرة من أمرها، فقتلوا منهم رجالا، وأجلوهم عن ماء لهم يسمى: ماء الوتير بأسفل مكة[1] حتى لجأوا إلى الاحتماء بالحرم. فأسرع وفد منهم إلى رسول الله - ﷺ ليخبروه بذلك[2].

فرأى رسول الله - ﷺ - أن اعتداء قريش على هذه القبيلة، يُعد اعتداء على الدولة الإسلامية، وتهديد سلطانها، الذى لمع فى سماء المنطقة العربية، لذا كان لابد من رد الاعتداء، وتأديب المعتدين، ولعل أنه - ﷺ - وجد أن الوقت قد حان لتطهير البيت الحرام من الأصنام، وتخليصه من الذين لا يصونون له حرمة، وتمكين المسلمين من العودة إلى وطنهم الذى خرجوا منه مكرهين، من غير شىء إلا أنهم قالوا: ربنا الله. فأمر أصحابه أن يتجهزوا للغزو دون أن يعلمهم بوجهته، حتى لا تستعد قريش لملاقاته.

قريش ترسل أبا سفيان سفيرا إلى رسول الله - ﷺ -:

أحست قريش بشنيع فعلها، وخافت عواقبه الوخيمة، لأنها أدركت أن الرسول - ﷺ - لن يسكت عليه، فعقدوا مجلسا استشاريا ضم الكبار وأصحاب الرأى، وأجمعوا على أن يرسلوا أبا سفيان بن حرب، سفيرا لهم لدى الرسول - ﷺ - ليعتذر عما حدث من قريش، وليشد فى العقد ويزيد فى المدة. وشعر أبو سفيان بصعوبة المهمة التى تجرع معها

(١) ابن عبد البر: الدرر ص٢١١.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٤/٣٠١، الطبرى: فى تاريخه ج٣/٤٤، ٤٥، ابن الأثير: الكامل ج٢/٢٤٠.

كأس المرارة، إذ كيف يغض من شأن نفسه، ويترجى عدواً لدوداً، ناصبه العداء عشرين عاما. غير أنه قبل القيام بها تحت إصرار القرشيين، وطمع أن تسهل له ابنته السيدة: أم حبيبة - رضي الله عنها - مهمته.

خـرج أبو سفـيان قـاصدا المدينة، ولما بـلغهـا توجه إلى بيت ابنتـه فرفضت أن يجلس على فـراش النبى - صلى الله عليه وسلم -. وقالت له: هذا فراش الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنت رجل مشـرك نجس. فخرج من عندها مغـضبا حتى أتى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكلمه فلم يرد عليه، ثم ذهب إلى أبى بكر ليشفع له عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبى، ثم توجه إلى عمر، فرفض.

ثم خرج فدخل على: على بن أبى طالب، ليشفع له عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرفض. ونصح أن يذهب إلى المسجد، فيجر نفسه، ثم يلحق بأرضه. وفعل[١]. ثم ركب بعـيـره عـائدا إلى مكـة. ولما بلغـهـا أبلغ القرشيين بما فعل.

وبذلك باءت سفـارة أبى سفـيان بالفشل، ولم ينجـح فى مهمـته، وكلل مسـعاه بالخيبـة، ولِمَ لا يكون ذلك؟. وقريش قد خانت العـهد، ومن ناحية أخرى شـعر القرشيون أنهم فى مأزق كبيـر فعادوا يتشاورون فيما بينهم، فأعيتهم الحيل وضاق بهم السبل.

وبينما هم على ذلـك إذ بالجيش الإسلامى يتـحرك من المدينة المنورة قاصـدا مكة المكرمة فى عشـرة آلاف من المسلمين. وهذا العدد لا عـهد للمدينة به حتى ذلك الوقت، وانضمت إليه أعداد من قبائل سُلَيْم ومُزَيْنة وغَطَفَان، وغيـر ذلك. وكلما تقـدم الركب فى السير انضـم إليهم من سائر القبـائل من زاد عددهم ومنعتهم، وكلهم ثقـة أن لا غالب لهم من

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٤/٣٠١، ٣٠٢.

دون الله.

وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله - ﷺ - ولا يدرون ما هو فاعل. ومضى الركب الإيمانى فى سيره حتى نزل مر الظهران[1]. فضربوا الخيام، وأشعلوا النيران فوق التلال ليشعروا القرشيين بكثرة عدد الجند، فيملأهم الرعب، فلا يفكرون فى المقاومة، فيتم الفتح صلحاً. ويدخل النبى - ﷺ - مكة من غير أن تسفك دماء، وتظل مكة حراماً كما كانت، وكما ينبغى أن تكون.

ورأى أشراف القرشيين ضخامة الجيش وكثرة استعداده. فقال أبوسفيان: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. وقد هداه الله للإسلام فأسلم. وأسرع إلى مكة فصرخ فى أهلها: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ثم قال: أسلموا تسلموا[2]. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ودخل الجيش الإسلامى مكة ظافراً منتصراً. ودخل - ﷺ - الكعبة وأمر أن تطهر من الأصنام. وشمل أهل مكة بعفوه وكرمه، وتم فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً.

وكانت هذه الغزوة الفيصل الذى قضى على الوثنية قضاء تاماً، فلم يترك لبقائها بقية فى ربوع الجزيرة العربية، فكانت عامة القبائل تنظر ماذا يسفر عنه الاصطدام بين المسلمين والكفار، ويدركون تماماً أن الذى يملك الحرم، لابد وأن يكون على الحق. وقد تحقق ذلك ظاهراً للعيان، فجاء

---

(١) قرية قرب مكة - ياقوت: معجم البلدان ج٤/ ٦٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٢٤٦.

أصحاب الدعوة فخلَّصوا الحرم مما فيه من الأوثان والأصنام، وعاد البيت كما كان على عهد إبراهيم - عليه السلام - مقراً للتوحيد، منزهاً عن الشرك، قبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود، لله وحده لا شريك له: **﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾**[1].

فكان فتح مكة ثمرة طيبة، من ثمار صلح الحديبية، كما كان من ثمراته المباركة، أن أعطى للرسول - ﷺ -، وللمسلمين فرصة نشر الإسلام والدعوة إليه خارج الجزيرة العربية. فكانت السفارات التى أرسلها - ﷺ - إلى الأمراء والملوك لدعوتهم وقومهم إلى الإسلام. وهذا موضوع الفصل التالى: سفراء الإسلام خارج الجزيرة العربية.

---

(١) آية ، ٢/الزمر.

الفصل الرابع والأخير:

سفراء الإسلام خارج الجزيرة العربية

- السفارة إلى هِرَقْل - إمبراطور الروم -.
- السفارة إلى كِسْرى - ملك الفرس -.
- السفارة إلى النجاشى - ملك الحبشة -.
- السفارة إلى المقوقس - عامل هرقل على مصر -.
- السفارة إلى هَوْذة - أميرَ اليمامة - .
- السفارة إلى الحارث الغسانى بدمشق.
- السفارة إلى المُنْذِر بن ساوى بالبحرين -.
- السفارة إلى جَيْفر وعبَّاد الجُلَنْدى بعُمَان -.
- نتائج السفارات -.

أرسل الرسول - ﷺ - مجموعة من صحابته الكرام إلى ملوك وأمراء العالم، يدعونهم إلى الله - عزّ وجَل -. واختار هؤلاء السفراء من الذين يتصفون بالفطانة وسرعة التصرف، وحضور البديهة، وممن يعرفون لغة البلاد المرسلة إليهم الكتب، ويعرفون طرقها ومسالكها - على نحو ما سبق أن وضحناه فى الفصل الأول من هذا البحث -.

وذلك لأن الإسلام دين عالمى، فهو ليس مقصوراً على العرب وحدهم، بل هو للناس كافة. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين**﴾[1]، وقال تبارك اسمه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾[2].

لذا وجب على المسلمين تبليغ هذه الرسالة إلى كل البشر، فى كل مكان، ولهذا نجد رسول الله - ﷺ - يعرب لصحابته عن عموم رسالته بعد عودته من صلح الحديبية، إذ خرج عليهم يوماً فقال: "أيها الناس إن الله قد بعثنى رحمة وكافة، فأدوا عنى يرحمكم الله، ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم". قالوا: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟. قال: "دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل" فبعث - ﷺ - أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى ملوك وحكام المعمورة يدعوهم فيها إلى الإسلام[3].

وكانت الكتب مكتوبة باللغة العربية، والسفير الذى يحملها يُجيد لغة

---

(١) آية ١٠٧/الأنبياء.

(٢) آية ٢٨/ سبأ.

(٣) ابن هشام: السيرة ج/٤/ ٤٤٩، الطبرى: تاريخ الرسل ج٢/ ٦٤٥، المقريزى: إمتاع الأسماع ج١/ ٢٣٤.

تلك البلاد، فكان بعد أن يقرأ الرسالة على الملك أو الأمير المرسلة إليه، يقوم بترجمتها إلى لغاتهم حتى يفهموها. وهذا اختيار موفق وبصيرة نافذة من رسول الله - ﷺ - إذ خطأ بسيط يقع فيه المترجم، يضر مضمون الرسالة، وهؤلاء الأعداء لا يؤتمنون على سر، ربما يدفعهم حقدهم وكراهيتهم للإسلام إلى التحريف فى مضمون الرسالة.

وقيل لرسول الله - ﷺ إن أصحاب الكتب من الملوك والأمراء لايقرأونها إلا إذا كانت مختومة، فاتخذ له خاتماً من فضة، نقش عليه: "محمد رسول الله، فى ثلاثة أسطر"[1] فختمْ الكتب وأعطاها للسفراء.

وقد حفظ لنا التاريخ صوراً من هذه الكتب التى تبين حرص الرسول - عليه الصلاة والسلام - الشديد فى تبليغ الدعوة الإسلامية، وكأنه بهذه الكتب يضع خريطة الفتوحات الإسلامية لأتباعه من بعده، فلم تمض بضع سنوات إلا والمسلمون يسيرون على درب هذه الكتب، ويترسمون خطاها، حتى وصلوا إلى ما وصلت إليه، ناشرين رسالة الله فى هذه الجهات.

والآن مع نصوص هذه الكتب والسفارات:

١ - سفارة النبى - ﷺ - إلى هرقل امبراطور الروم:

بعث النبى - ﷺ -: دحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل - إمبراطور الروم - بكتاب هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، الى هرقل - عظيم الروم -، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين: فإن توليت

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج١ ق٢/ ١٥، البخارى فى صحيحه ج٧/ ١٧٦، الترمذى: فى سننه ج/ ١٠ ٢، ٢٠٢ كتاب اللباس، باب ما جاء فى نقش الخاتم.

فإن إثم الأكـارين (الأريسيين) - أى عـامة الشـعب - عليك. ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الـــلَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

تقدم الوفد الدبلوماسى وعلى رأسهم دحية بالكتاب، وتسلمه هرقل، وقرأ الخطاب عليه، وترجمه له، فلم يـغضب ولم تثر ثائرته، بل احتفظ بالكتاب، ورد الوفد رداً جميعاً.

ثم جمع هرقل كبار بطارقة الكنيسة، وعـقد مجلساً أطلعهم فيه على كتاب الرسول - ﷺ - وأبدى رغبـته فى الإسلام، وقال لهم: "والله إنه النبى الذى نجده فى كـتابنا، فهلم فلنتـبعه ونصـدقه، فتـسلم لنا دنيانا وآخرتنا"[2].

فلما سمـعوا منه رغبته الصريحـة فى اتباع النبى - ﷺ - واعتناق دينه. ثارت ثائرتهم، واستـبقوا البـاب ليخرجـوا، فلما رأى هرقل ذلك منهم، خافهم على نفسه وملكه، وطلب منهم أن يردوا إليه، وقال لهم: "إنما قلت لكم ما قلت لأنظر صلابتكم فى دينكم، وقد رأيت منكم الآن ما سرنى". فرضى القوم وانصرفـوا؛ ثم التفت هرقل إلى السفير المسلم دحية وأخبره بأن ما جاء به رسول الله حقاً، يجدونه فى كتابهم[3].

ومن هذه الرواية يتبين لنا رغـبة هرقل فى الإسلام، ولو تبعـه قومه ووافقوه، لنالوا خير الدنيا والآخرة.

---

(١) الإمـام مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى ج٦/ ١٠٢ كتاب المغازى، باب كتاب النبى - ﷺ - إلى هرقل. والآية٦٤/ آل عمران.

(٢) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٦٤٩، ٦٥٠.

(٣) المصدر السابق، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٢١١، القرمانى: أخبار الدول ص٣٧٥.

ويروى المؤرخون رواية أخرى تؤكد ميل هرقل إلى الإسلام، وأنه تحدث مع أبى سفيان بن حرب فى شأن النبى - ﷺ -، ويظهر منه كيف هزت الدعوة الإسلامية نفوساً كثيرة من الناس حتى الملوك؟. وكيف مالت نفوسهم إلى دعوة الحق والهدى؟.

روى ابن عباس عن أبى سفيان أنه قال: "كنا تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله، قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا، فلما كانت الهدنة - أى صلح الحديبية - بيننا وبين رسول الله لم نأمن إلا نجد أمناً، فخرجتُ فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام، وكان وجه متجرنا منها غزة - من أرض فلسطين - فقدمنا حين ظهر هرقل على ما كان بأرضه من فارس، وأخرجهم منها، وانتزع له منهم وبلغه أن صليبه قد استنفذ له. وكانت حمص منزله.

خرج يمشى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه ما رد، ليصلى فى بيت المقدس، تُبسط له البُسط، وتلقى عليه الرياحين. فلما انتهى إلى إيلياء - بيت المقدس - وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته، وأشراف الروم، أصبح ذات غداة مهموماً، يقلب بصره إلى السماء، فقال له بطارقته: ما الذى أهمك؟.

قال: أجل رأيت فى هذه الليلة أن مُلْكَ الختان ظاهرٌ. قالوا له: أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود، وهم فى سلطانك وتحت يدك، فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك، فَمُرْهُ فليضرب أعناق كلِّ من تحت يده من يهود، واسترح من هذا الهم.

فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه، إذ أتاه رسول صاحب بُصْرى برجل من العرب يقوده - وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها - فقال

أيهـا الملك: إن هذا الرجل من العرب، من أهل الشّاء والإبل، يـحدث عن أمر حدث ببلاده عجب، فـسله عنه. فلما انتهى إلى هرقل صاحب بصـرى، قال لهـرقل لترجـمـانه: سله ما كـان هذا الحدث الذى كـان ببلاده؟.

فـقـال: خرج بين أظهـرنا رجلٌ يزعـم أن نبى، فـقد اتبـعـه ناسٌ وصدقـوه، وخالفـه ناس، وقد كـانت بينهم ملاحم فى مـواطن كثـيرة فتركتهم على ذلك.

فلما أخبر الخبر قال: جردوه فإذا هو مختون، فقال هرقل: هذا والله ما رأيت لا ما تقـولون. أعطوه ثوبه، ثم قال لصاحب شُرْطه: قلِّب لى الشام ظهراً وبطناً حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل.

قال أبو سفيان: فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطه. فقال: أنتم من قوم الرجل، الذى بالحجاز؟. قلنا: نعم.

قال انطلقوا بنا إلى الملك، فانطلقنا معـه، فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل؟. قلنا: نعم، قـال: أيُّكم أقرب بـه رحمـاً؟. قال أبو سـفيان: أنا. فـقال: أُدْنه، فـأقعـدونى بين يديه، وأقـعد أصحـابى خلفى، ثم قال: سأسأله فإن كذب فردوا عليه، فوالله لو كذبت ما ردوا على، ولكنى كنتُ أمرأ سيداً أتكرم عن الكذب، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كـذبتـه أن يـحـفظوا على ذلك، ثم يحـدثوا بـه عنى، فلم أكذبه.

فقـال: أخبـرنى عن هذا الرجل الذى خـرج بين أظهركم يدّعـى ما يدّعى. قال: فجعلت أزهد له شأنه، وأُصغِّرُ له من أمره، وأقول له أيها الملك ما يهمك من أمره؟. إنّ شأنه دون ما يبلغك، فجعل لا يلتفت إلى

ذلك، ثم قال: أَنْبِئْنِى عما أسألك عنه من شأنه: كيف نسبه فيكم؟.

قلت محضا من أوسطنا نسباً. قال: هل من أهل بيته من يقول مثل ما يقول، فهو يتشبه به؟. قلت: لا. قال: فهل له فيكم ملك سلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟. قلت: لا.

قال: فأخبرنى عن أتباعه منكم، مَنْ هُم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان، والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد.

قال: فهل يحبه من يتبعه، ويلزمه أم يفارقه؟. قلت: ما تبعه رجل مفارقه. قال: فكيف الحرب بينكم وبينه؟.

قلت: سِجَالٌ يدال علينا وندال عليه. قال: هل يغدر؟. قال أبو سفيان: فلم أجد شيئاً أغمز به غيرها. قلت: لا. ونحن منه فى هُدْنة، لا نأمن غَدْرَهُ. فوالله ما التفت إليها.

قال أبو سفيان: فقال هرقل: سألتك عن نسبه فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً، وكذلك الأنبياء. وسألتك هل قال أحد مثل قوله من أهل بيته فهو يتشبه به، فزعمت: أن لا. وسألتك: هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه، فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان. وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه، أم يفارقه، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان، لا تدخل قلبا فتخرج منه. وسألتك: هل يغدر، فزعمت: أن لا. ولئن صدقتنى ليغلبنَّ على ما تحت قدمىّ هاتين. ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه. فانطلق لشأنك.

قال أبو سفيان: فقمتُ من عنده، وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى، وأقول: أى عباد الله، لقد ظهر أمر ابن أبى كبشة[1] أصبح ملوك بنى الأصفر ـ الروم ـ يهابونه فى سلطانهم[2].

ويذكر الطبرى فى رواية أخرى: أن هرقل وصل إليه كتاب الرسول ـ ﷺ ـ وهو بالشام، ويريد العودة إلى القسطنطينية ـ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ـ، فجمع الروم فقال لهم: "يا معشر الروم إنى عارض عليكم أموراً فانظروا فيما أردتها. قالوا: ما هى؟. قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبى مرسل، إنا نجده فى كتابنا، نعرفه بصفته التى وصف لنا فهُلمَّ فَلْنَتَبِعْهُ فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. قالوا: نحن نكون تحت أيدى العرب، ونحن أعظم مُلْكاً وأكثرهم رجالاً وأفضلهم بلداً. قال: فهلم فأعطيه الجزية فى كل سنة، أكسر عنى شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه. قالوا: نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا، ونحن أكثر الناس عدداً وأعظمهم ملكاً وأمنعهم بلداً؟!. لا والله لا نفعل هذا أبداً.

قال: فهلم فلأصالحه على أنْ أعطيه أرض سورية، ويدعنى وأرض الشام، فقالوا: نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سرّة الشام، والله لا نفعل هذا أبداً.

فلما أبوا عليه قال: أما والله لترونّ أنكم ظفرتُم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم، ثم جلس على بَغْلٍ له فانطلق حتى إذا أشرف على الدَرْب.

---

(١) أبو كبشة: هو زوج السيدة حليمة السعدية، مُرضعة الرسول ـ ﷺ ـ، وكان كُفّار مكة يكنون به رسول الله ﷺ ـ استخفافا.

(٢) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٦٤٦ ـ ٦٤٨، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٢١١، ٢١٢، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢، ابن كثير: البداية ج٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٤.

استقبل أرض الشام، ثم قال: "السلام عليك يا سورية تسليم الوداع"، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية[1].

وكادت مهمة هذا السفير تلقى نجاحا منقطع النظير، وتحقق ثمرة غالية لولا أن الشيطان أعمى أبصار كبار القوم، الذين جمعهم هرقل، وعرض عليهم رغبته الصريحة فى الإسلام. فوضعوا أصابعهم فى آذانهم فصموها عن سماع دعوة الحق، وهموا بالانصراف من المجلس، مسرعين تجاه الباب. فأوجس هرقل فى نفسه خيفة منهم، فناداهم بما أدخل السرور إلى قلوبهم، وجعلهم يطيرون فرحاً.

٢ - سفارة الرسول - ﷺ - إلى كِسْرَى الفرس:

أرسل الرسول - ﷺ -: عبد الله بن حُذَافة السهمى، سفيراً إلى كِسْرَى شِيرَوَيْه - ملك الفرس - بكتاب هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً. أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس"[2].

انطلق السفير بالكتاب وقابل كسرى وهو بالمدائن - عاصمة ملكه - فسلمه كتاب رسول الله - ﷺ -، فلما قرئ عليه، استشاط غضبا، ودار بخلده أنه من آل ساسان، الملوك الجبابرة، ذوى السيادة على اليمن والحيرة، فكيف يستمع لكلام الرسول - ﷺ - ويدخل فى الإسلام.

(١) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٦٥١، ابن كثير: البداية والنهاية ج٢/ ٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٦٥٤، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٢١٣، ابن كثير: البداية ج٤/ ٢٦٩، القلقشندى: صبح الأعشى ج٦/ ٣٦٧، ٣٦.

فأخذ الكتاب ومزقه[1].

ويا ليت الأمر قاصر على ذلك، بل أرسل إلى "باذان" - عامله على اليمن - كتاباً يقول فيه: ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جَلْدَيْن فليأتيانى به.

ولما بلغ النبى - ﷺ - أن كسرى مزق الكتاب. قال: "مزق الله ملكه"[2].

ثم قدم رسولا باذان على رسول الله - ﷺ - وأعلماه الخبر، فأمهلهما إلى الغد، فنزل عليه الوحى يخبره أن الله قد سلط على كسرى ولده: "شيرَوَيْه" فقتله. فلما كان الغد دعا رسولا "باذان" وأخبرهما الخبر، وقال: "قولا لباذان، إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك".

وانطلق الرسولان حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وقصا عليه ما تنبأ به النبى - ﷺ - فقال: والله ما هذا كلام مَلك وإنى لأراه نبياً، ولتنظرنّ ما قد قال: فإن كان حقاً فإنه لنبى مُرْسَلٌ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

فلم يلبث أن جاءه كتاب شيروية، يُخبره بقتل كسرى، جاء فيه: "... أما بعد فإنى قد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما استحل من قتل أشرافم، فإذا جاءك كتابى هذا فَخُذْ لى الطاعة من

(1) البخارى: فى صحيحه ج7/ 91 باب كتاب النبى - ﷺ - إلى كسرى وقيصر. طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(2) البخارى: فى صحيحه ج7/ 91. والحديث رواية عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما.

قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه".

عند ذلك تحقق صدق الخبر لدى باذان، وأيقن صدق نبوءة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه نبى مرسل، فأسلم وتبعه كثير من الفرس، الذين كانوا باليمن[١].

ولذا فقد خرجت اليمن من سلطان كسرى. وكان ذلك من معجزات الرسول ـ ﷺ ـ، الذى بعثه الله للعالمين، وأيده بوحى السماء. قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢].

وأسند الرسول ـ ﷺ ـ إلى باذان الولاية على جميع مخاليف اليمن[٣]. فاتخذ صنعاء عاصمة لولايته وبقى بها حتى مات بعد حجة الوداع. فقسم النبى ـ ﷺ ـ اليمن إلى عشر مناطق، جعل على كل منها عاملا من صحابته الكرام. منهم شهر بن باذان على صنعاء، وأبوموسى الأشعرى على مأرب، وخالد بن سعيد، على زبيد، وجعل معاذ بن جبل يتنقل بين ولايات اليمن، يعلمهم أمور الدين، ويقرئهم القرآن الكريم[٤].

ومما سبق نعلم أن السفير: عبد الله بن حُذَافَة قد نجحت سفارته، وحققت الغرض المنشود منها. فعلى الرغم من ثورة كسرى العارمة، التى

(١) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٦٥٤، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٢١٤، ٢١٥، ابن سيد الناس: عيون الأثر: ج٢/ ٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) آية ٣، ٤/ النجم.

(٣) مخاليف: جمع مخلاف، كور باليمن، ولكل منها اسم يعرف به ـ الخوارزمى: مفاتيح العلوم ص١٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٣٣٦.

تملكته - عندما قُرِئ عليه الكتاب -، والعظمة التى أحاطت به، من أنه من سلالة الساسانيين الملوك الجبابرة، أصحاب السيادة على اليمن والحيرة، ويأتى عربى الصحراء، يدعوه إلى الإسلام، ويضع اسمه قبل اسم كسرى. فمزق الكتاب، إلا أن النتائج الطيبة، والثمار الحسنة، هى: إسلام عامل اليمن "باذان" وكثيرين من الفرس المقيمين فى بلاد اليمن، عندما تحققت لهم نبوءة الرسول - ﷺ - وصدق دعوته، وأنه نبى أرسله الله - تعالى - لينقذ البشرية من الهلاك.

وكذلك تحقق ما أخبره به - ﷺ - من تمزيق ملك كسرى، ففى أقل من عشرين عاما كانت فارس دولة ممزقة تحت حكم المسلمين، يحكمها أحد الرجال، الذين رباهم رسول الإنسانية، محمد رسول الله - ﷺ - والذى أطلق عليه كسرى (عربى الصحراء)[1].

٣ - سفارة النبى - ﷺ إلى النجاشى:

أرسل النبى - ﷺ -: عمرو بن أُمية الضَّمرى، برسالة إلى النجاشى - ملك الحبشة - هذا نصها.

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم - أصحمة بن أبجر - ملك الحبشة -: سلام عليك أنت، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم، روح الله، وكلمته التى ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه، ونفخه كما نفخ آدم بيده، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى، وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وإنى أدعوك

(١) د. محمد مصطفى النجار: سيرة الرسول - ﷺ - ص١٣٨، ١٣٩.

وجنودك إلى الله - عز وجل - وقد بلّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتى. والسلام على من اتبع الهدى.

انطلق الوفد الدبلوماسى بقيادة السفير عمرو بن أمية، إلى أرض الحبشة. وهناك استقبلهم ملكها استقبالاً كريماً، وأحسن إليهم. ثم بعث كتاباً إلى رسول الله - ﷺ - يعلن إسلامه على يد جعفر بن أبى طالب - رضي الله عنه - حين وفد عليه مع مجموعة من المسلمين فى أول سفارة إسلامية إلى بلاد الحبشة.

وهذا نص الكتاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشى الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمته وبركاته، من الله الذى هدانى للإسلام. أما بعد: فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُغْرُوقاً[1]، إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله، صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين، وقد بعثتُ إليك بابنى "أرها بن الأصحم بن أبجر" فإنى لا أملك إلا نفسى، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإنى أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله"[2].

وقد سُرَّ النبى - ﷺ - والمسلمون بإسلام النجاشى، وبنشر الإسلام

---

(١) الثغروق: قمع الثمر، يقال ما له من ثغروق أى شىء، انظر ابن منظور: لسان العرب ج١/ ٤٨٩.

(٢) الطبرى: فى تاريخه ج٢/ ٦٥٢، ٦٥٣، ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ٢٦٤، القلقشندى: صبح الأعشى ج٦/ ٣٦٤، ٣٦٥.

فى أرض الحبشة، فإنه بلا شك قد تبع النجاشى خلق كثير.

ويروى الطبرى: أن رسول الله - ﷺ - أرسل إلى النجاشى رسالة أخرى، ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، ويبعث بها مع مَنْ عنده من المسلمين، فأرسل النجاشى إلى السيدة أم حبيبة وأخبرها بخطبة النبى - عليه الصلاة والسلام - لها، ففرحت، وأصدقها أربعمائة ديناراً، دفعها النجاشى إلى وكيلها: خالد بن سعيد. كما أمر النجاشى نساءه أن يبعثن إليها بما عندهن من عود وعنبر ، فكان - ﷺ - يراه عليها وعندها فلا ينكره.

وقد عادت السيدة أم حبيبة - رضي الله عنها - إلى المدينة حين قدم رسول الله - ﷺ - من خيبر فدخلت إليه[1].

ولما بلغ الرسول - ﷺ - وفاة النجاشى قال: "مات اليوم رجل صالح" فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمه»[1] ويروى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أنه قال: صلى النبى - ﷺ - على النجاشى، والناس خلفه صفوفاً"[3].

وليس ببعيد أن يكون النجاشى الذى قد اعتنق الإسلام، هو الذى آوى المسلمين الذين هاجروا، وأكرم وفادتهم، وأحسن استقبالهم، وأنزلهم منزلة كريمة، ورفض تسليمم إلى سفيرى قريش، حين أرسلت فى طلبم، وأطلق لهم الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية وأمنهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل ج٢/ ٦٥٣، ٦٥٤.

(٢) البخارى: صحيح البخارى ج٦/ ١٩١ باب موت النجاشى، كتاب المناقب.

(٣) البخارى: فى صحيحه ج٦/ ١٩١ كتاب المناقب، باب موت النجاشى، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

وقد أحرزت هذه السفارة نصراً كبيراً للإسلام والمسلمين، إذ أسلم النجاشى بدعوة جعفر بن أبى طالب ﷺ، وصار ـ منذ أن وفد عليه المهاجرون ـ من أتباع النبى ـ ﷺ ـ وقد أحسن وفادة هؤلاء المهاجرين، وعاملهم بما يليق بهم.

ولما بعث الرسول ـ ﷺ ـ كتابه إليه: مع السفير عمرو بن أمية، استقبل الوفد بأحسن استقبال، وحمل الوفد كتاباً إلى الرسول ـ ﷺ ـ يُعلن فيه إسلامه على يد جعفر، وأنه من المسلمين.

ويذكر بعض المحدثين: أن النجاشى لم يسلم، مستدلاً على ذلك بأن الحبشة كانت قد تطرفت تطرفاً من أطراف الإسلام (أى أغارت على طرف من بلاد المسلمين) فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ، فوجه إليهم علقمة بن مجزر المدلجى فى البحر، فى نفر من المسلمين، فأصيبوا، فعزم الخليفة عمر على ألا يحمل فى البحر أحد للغزو[1].

فإن صحت هذه الرواية فهى ليست دليلا على عدم إسلام النجاشى. فالرجل قد ظهر بمظهر طيب يدل على أن الله قد هداه للإسلام، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وقد أعرب الرجل باعتناقه الإسلام صراحة فى كتابه الذى أرسله إلى الرسول ـ ﷺ ـ ولما توفاه الله وعلم النبى ـ ﷺ ـ صلى عليه بالمدينة والناس خلفه صفوفا، فلو لم يكن من المسلمين ما صلى عليه أبدا.

٤ ـ سفارة الرسول ـ ﷺ ـ إلى المُقَوْقِس بمصر:

بعث النبى ـ ﷺ ـ حاطب بن أبى بَلْتعة اللخمى، بكتاب إلى المقوقس ـ عامل هرقل على مصر ـ يدعوه والمصريين إلى الدخول

(١) د. حسن إبرايم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ج١/١٦٧. الطبعة التاسعة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٧٩.

في الإسلام. هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى المقوقس - عظيم القبط -، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1].

فخرج حاطب على رأس وفد دبلوماسى حتى قدموا على المقوقس فى الإسكندرية، وسلّموه الكتاب، فأحسن استقبالهم، وأفاض عليهم كرمه الوفير، ووضع الكتاب فى حُقٍ من عاج، وختم عليه. وأنه لم يُسْلم ولم يبعد[2].

وقال المقوقس لحاطب: "قد كنتُ أعلم نبياً قد بقى، وقد كنتُ أظن أن مخرجه الشام. وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك"[3].

وأرسل المقوقس مع حاطب رسالة كتبها إلى رسول الله - ﷺ - جاء فيها: "قد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين، لهما مكان عظيم فى القبط، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها".

وكان من الهدايا حمار وعسل، وقد قَبِلَ النبى - ﷺ - هديته، وأخذ الجاريتين: مارية وشيرين، فتزوج من الأولى، وأنجب منها ولده:

---

(1) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٦٥، القلقشندى: صبح الأعشى ج٦/٣٦٤، والآية رقم ٦٤/آل عمران.

(2) المصدر السابق الأول ج٢/ ٢٦٦.

(3) ابن سيد الناس: مصدر سابق ج٢/ ٢٦٦ بتصرف.

إبراهيم، ووهب الثانية إلى حسان بن ثابت[1] - رضي الله عنه -، فأنجب منها ولده عبد الرحمن[2].

وقد سُرَّ النبى - صلى الله عليه وسلم - من معاملة المقوقس لسفيره، وأوصى المسلمين بالقبط خيراً فقال: "إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها فإن لهم ذمة ورحما"[3].

وتم فتح مصر (١٨ - ٢١هـ) فى عهد ثانى الخلفاء الراشدين: عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه -، على يد القائد العظيم: عمرو بن العاص - رضي الله عنه -، وعامل المسلمون أهلها بالحسنى وزيادة، تنفيذاً لوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وهذه السفارة أتت بنتائج طيبة للغاية، فعلى الرغم من أن المقوقس لم يسلم، إلا أن الإسلام قد عرف طريقه إلى قلوب المصريين، وسمع به أهلها، وهالهم انتصاراته الرائعة، ونشر دعوته فى أرجاء المعمورة، وعرفوا الكثير عن عدله وتسامحه، وحسن معاملة أهله للبلاد المفتوحة، وتخليصهم من نير الحكام الجائرين، الذين نهبوا الثروات، وامتصوا دماء الشعوب. وعندما كان يفتح المسلمون هذه البلاد، ينهضوا بها وبأهلها، ويحترموا آدميتهم وكرامتهم. هذه الأصداء ترددت فى كل مكان عن الفتح الإسلامى، وعدل رجاله، فسمع به المصريون، فتمنوه لأنفسهم.

وقد بَشَّرَ النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بأنهم سيفتحون مصر، وتحققت

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج١ ق٢/ ١٧، ابن قتيبة: المعارف ص١٤٣، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١/ ٩١، ٩٢.

(٢) ابن كثير: البداية ج٤/ ٢٧٢، ابن الفراء: رسل الملوك ص٢٤، ٢٥.

(٣) مسلم: فى صحيحه ج٤/ ١٩٧٠ طبعة الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

بشـراه، وفُتحت مـصر، وكـانت من أهم ولايات الدولة الإسـلاميـة، وقاعدة لنشر الإسلام وحضارته فى بلاد المغرب العربى ثم فى الأندلس.

٥ ـ سفارة النبى ـ ﷺ ـ إلى هَوْذَة ـ أمير اليمامة ـ:

سير ـ عليـه الصلاة والسلام ـ سُلَيْط بن عمرو العامـرى، سفيراً إلى هوذة بن على الحنفى، أمـير بلاد اليـمامـة، بكتاب يدعـوه وقومـه إلى الإسلام، هذا نصه.

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمـد رسول الله، إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك"[١].

فسلمه سليط الكتاب، فقـرأه، وكتب إلى النبى ـ ﷺ ـ كتاباً جاء فيـه: "ما أحسن ما تدعـو إليه وأجمله، وأنا شـاعر قومى وخطيـبهم، والعرب تهـاب مكانتى، فاجعل إلىَّ بعض الأمـر أتبعك" وأعطى سليطاً جائزة مالية، وكسوة من نسيج هجر.

فقدم سليط على النبى ـ علي الصلاة والسلام ـ وأخـبره الخبر، فقال ﷺ : "والله لو سألنى سـبابة ـ أى بلحة ـ من الأرض مـا فعلت، بادٍ وبادٍ ما فى يديه".

وفعلاً تحقق قول الرسول ـ ﷺ ـ فبـعد انصرافه من غزوة الفتح، نزل عليه جبريل وأخبـره بموت هوذة، فقال ـ ﷺ ـ حين سمع ذلك: "أما اليمامة سيخرج بها كـذاب يتنبأ، يُقتل بعدى" فقال أحد الصحابة: من يقتله يا رسول الله؟ قال: أنت وأصحابك"[٢].

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ج٦/ ٣٦٥.
(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ٢٦٩، ٢٧٠.

٦ ـ سفارة الرسول ـ ﷺ ـ إلى الحارث الغَسَّانى بدمشق:

وجه الرسول ـ ﷺ ـ: شجاع بن وهب بن أسد بن خزيمة، بكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى، بغوطة دمشق، لدعوته وقومه إلى الإسلام. هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، وصدقه، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك مكانك".

حمل شجاع هذا الكتاب، وانتهى به إلى حاجب الحارث، فوجده مشغولاً بتهيئة القصر، لقيصر الروم: هرقل، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، ليقدم الشكر لله على أن أنقذ صليبه من الفرس، فأقام على بابه يومين أو ثلاثة، ينتظر خروج الحارث. والتقى بحاجب الحارث فأكرمه وأحسن ضيافته، عندما علم أنه سفير رسول الله ـ ﷺ ـ فأجابه الحارث أنه لا يستطيع أن يقابل الحارث حتى يخرج يوم كذا وكذا. وسأله عن صفة النبى ـ ﷺ ـ، فلما سمع منه. قال: هذه صفته كما قرأتها فى الإنجيل، وغالبه البكاء، ومال إلى الإسلام، ولكنه خاف بطش الحارث.

وفى يوم خرج الحارث فتقدم منه شجاع وسلمه كتاب رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقرأه، ثم ألقاه من يده، وقال: "مَنْ ينتزع منى ملكى وأنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته.

وأمر بالخيل أن تمر أمامه فى عرض، ثم قال لشجاع: أخبر صاحبك ما ترى.

ثم عدل عن رأيه عندما جاءه كتاب قيصر يأمره بأن يُحسن استقبال سفير الرسول ـ ﷺ ـ ويرده رداً جميلاً، فأمر له بجائزة مالية: مائة

مثقال ذهبا، وأعطاه حاجبه (مرى) كُسوة ونفقة.

عاد السفير المسلم إلى المدينة المنورة، وألقى تقريره عما شاهده وسمعه فى سفارته على رسول الله - ﷺ -، فقال - عليه الصلاة والسلام -: "بادٍ ملكه" (1) يقصد ملك الحارث.

وهذه السفارة وإن لم تحقق الغرض المنشود منها، إلا أنه يكفى ميل (مرى) - حاجب الحارث - إلى الإسلام، وكاد يعتنقه، لولا أنه خشى بطش الحارث، ولا ريب أن هذا الحاجب تحدث لآخرين غيره عن النبى - ﷺ - وبهذا تكون هذه السفارة قد وطدت للإسلام فى أرض دمشق.

٧ - السفارة الإسلامية إلى المُنْذِر بن ساوى - صاحب البحرين -:

بعث النبى - ﷺ -: العلاء بن الحضرمى سفيراً إلى: المنذر بن ساوى - صاحب البحرين - بكتاب منه، يدعوه فيه وقومه إلى اعتناق الإسلام.

ولما وصلت السفارة الإسلامية أرض البحرين، والتقى سفيرها بالمنذر وقرأ عليه كتاب رسول الله - ﷺ - رغبت نفسه ومالت إلى الإسلام فدخل فيه، ومعه جمع كثير من أهل البحرين.

ولما أراد السفير العودة إلى المدينة المنورة - عاصمة الدولة الإسلامية - أرسل المنذر كتاباً إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - جاء فيه:

"أما بعد، يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام ودخل فيه، ومنهم من رفض. وبأرضى مجوس، ويهود، فابعث إلىَّ أمرك فى ذلك".

---

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق١٧/٢، ابن سيد الناس: عيون الأثر: ج٢/ ٢٧٠، ٢٧١.

فوصل السفير المسلم بهذا الكتاب، وقرأه على النبى - ﷺ - فَسُرَّ لإسلام المنذر ومن شرح الله صدورهم للإسلام من أهل البحرين. وكتب له كتاباً، رداً على كتابه، يُجيبه فيه عن اليهود والمجوس الذين رفضوا الدخول فى الإسلام. ونص الكتاب هو:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله، الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد: فإنى أذكرك الله - عز وجل -، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، فإنه من يطع رسلى، ويتبع أمرهم، فقد أطاعنى، ومن نصح لهم، فقد نصح لى، فإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح، أصلح إليك، وأثبك على عملك، ومن أقام على يهودية، أو مجوسية فعلية الجزية"[1].

فلما وصل كتاب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - إلى المنذر، فرض الجزية على من لم يسلم من اليهود والنصارى والمجوس، وكانت ديناراً عن كل بالغ[2].

وهكذا فقد كانت هذه السفارة سبباً فى انتشار الإسلام فى البحرين، واعتنقه كثير من أهلها وعلى رأسهم أميرهم، وبقيت طائفة منهم على دينهم القديم: اليهودية، والمجوسية. فكتب أمير البحرين إلى الرسول - ﷺ - يأخذ رأيه فى هؤلاء الذين فضلوا البقاء على دينهم.

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/ ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٢١٥، وانظر كذلك ابن الفراد: رسل الملوك ص٢٦.

فأمره النبى - ﷺ - أن يُحسن معاملتهم، وأن يترك لهم حرية العبادة، وأن يدفع القادر منهم جزية سنوية، تتناسب مع ثرائه وقدرته، وذلك فى نظير حمايتهم من أنفسهم، ومن المعتدين عليهم، وفى مقابل تمتعهم بمرافق الدولة الإسلامية.

وقد أمَّرَ رسول الله - ﷺ - العلاء بن الحضرمى عليهم[1].

وبذلك قد أتت هذه السفارة ثماراً طيبة، ونجحت نجاحاً عظيماً فى نشر الدعوة الإسلامية فى أرض البحرين.

٨ - السفارة الإسلامية إلى: جَيْفَر وعبَّاد ابنى الجُلَنْدى - صاحب عُمان -:

سيَّرَ النبى - ﷺ -: عمرو بن العاص سفيراً إلى جَيْفَر وعبَّاد ابنى الجُلَنْدى - صاحب عمان - بكتاب منه يدعوهما وقومهما إلى اعتناق الإسلام. ونص الكتاب هو: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله، إلى جيفر، وعباد ابنى الجلندى. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوكما بداعية الإسلام، أسلما تسلما، فإنى رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر مَنْ كان حياً، ويُحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام، وليتكما، وإن أبيتما فإن ملككما زائل عنكما. وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما"[2].

فانطلق عمرو بالكتاب إلى عمان، وتقدم به على عباد - الأخ الأصغر - وكان يتصف بالحلم، وحسن الخلق وأعلمه أنه سفير رسول الله - ﷺ - إليه، وإلى أخيه، فسأله عباد عن دعوته التى جاء من

(١) البخارى: فى صحيحه ج٦/٢٦٤، ٢٦٥ - كتاب المناقب.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج٦/ ٣٦٥، ٣٦٦.

أجلها؟. فأجاب: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما تعبد من دونه، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله.

فقال له يا عمرو: كيف صنع أبوك، إنه سيد قومه، ولنا فيه قدوة؟

قال عمرو: مات على الكفر، وتمنيتُ أن يكون مسلماً، وكنت أنا على رأيه، حتى شرح الله صدرى للإسلام، فأسلمت قريبا عند النجاشى، الذى قد أسلم هو أيضا، وأقره قومه على ملكه واتبعوه.

فقال يا عمرو: لا تكذب، فليس فى الرجل خصلة أشر من الكذب.

فقال: ما كذبت، والكذب يحرمه ديننا. فقال عباد: وهل علم هرقل بإسلامه؟.

قال عمرو: نعم علم وما استطاع أن يصنع شيئا.

قال: كيف؟

قال عمرو: كان النجاشى يُعطيه خراجاً كل عام، فلما أسلم توقف عن هذا العطاء، وقال والله لو سألنى درهماً واحداً ما أعطيته.

فبلغ هرقل ذلك فقال: رجل اختار ديناً لنفسه، رغب فيه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع.

قال عباد: ما الذى يأمر به هذا الدين؟.

قال عمرو: يأمر بطاعة الله - عزّ وجل -، ويأمر بالبر وصلة الأرحام، وينهى عن المعصية، وعن الظلم والعدوان، وعن شرب الخمر والزنا، وعبادة الحجر والأوثان والصليب.

قال عباد: ما أحسن هذا الدين، لو تابعنى أخى لذهبنا إلى رسول

الله، فنعلن إسلامنا أمامه، غير أنى أخشى أن يضن بملكه.

قال عمرو: إن أسلم ملكه رسول الله - ﷺ - على قومه.

قال: هيا نذهب إليه، فهو أسنُ منى، لأوصلك به حتى يقرأ كتابك.

ومكث عمرو عدة أيام مع عباد، يشرح له مزايا الإسلام ومحاسنه، وأنه دين جاء لينقذ البشرية من الهلاك. فكان عباد يعرض ما يسمع من عمرو على أخيه جَيْفَر.

وفى يوم سمح لمقابلة عمرو، فدخل عليه وسلم إليه الكتاب، فقرأه، ثم أعطاه إلى أخيه ليقرأه، ثم سأل عمرو عن قريش.

فأجاب عمرو: تبعته ورغب الناس فى الإسلام، واختاروه على غيره، فما أعلم أحداً بقى على دينه غيرك، فأسلم تسلم، فإن أسلمت ملكك الرسول - ﷺ - على قومك، وإلا فالخيل والرجال يوطئون أرضك.

فقال جَيْفَر: أمهلنى إلى الغد، فلما كان الغد، دخل عليه عمرو فوجده من أحرص الناس على الملك. أبى أن يجب دعوة الإسلام. فدخل عليه أخوه عباد، وما زال به حتى مال إلى الإسلام، فأسلم هو وأخوه، وتبعهما خلق كثير[1]. وأخذ عمرو الصدقة من الأغنياء ووزعها على الفقراء[2].

وهكذا استطاع عمرو بن العاص بمهارته وحنكته ودهائه - إذ هو أحد دهاة الحرب[3] - أن يبين محاسن الإسلام، ويعرضها عرضا جيدا على

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ج٢/٣٦٧ - ٣٦٩ - بتصرف.
(٢) ابن سعد: الطبقات ج١ ق٢/١٨.
(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٣٢٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

عباد وجيفر ابنى الجلندى، ويقنعهما باعتناقه والدخول فيه، حتى أسلما، وتبعهما خلق كثير[1]، "فالناس على دين ملوكهم"[2].

وعلى هذا نقرر أن مهمة هذا السفير قد نجحت فى تحقيق أغراضها، وأتت نتائج طيبة؛ وبهذا فقد أخذ الإسلام طريقه إلى قلوب العُمَّانيين، وقام أفراد السفارة، وعلى رأسهم عمرو بن العاص، بتعليمهم القرآن الكريم، والسنن[3].

* * *

هذه هى السفارات التى أرسلها الرسول ﷺ إلى أمراء وملوك المعمورة - فى ذلك الوقت -، يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام. ولا يشك أحد من مؤرخى العرب فى صحتها، فقد ذكر ابن هشام[4]، وابن سعد[5]، واليعقوبى[6]، والطبرى[7]، وابن الأثير[8]، والقلقشندى[9]، وغيرهم، ما يثبت إرسال النبى - عليه الصلاة والسلام - سفراء إلى حكام الدول ورؤساء القبائل، وكتبه إليهم.

يروى الطبرى بسنده عن يزيد بن أبى حبيب المصرى، أنه وجد كتاباً فيه تسمية من بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الخائبين (الكفر)، وقال

---

(١) ابن الفراء: رسل الملوك ص٢٥، ٢٦ تحقيق د. صلاح الدين المنجد.

(٢) ابن طبا طبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٢ طبعة صبيح - القاهرة.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص٩٢ تحقيق د. صلاح الدين المنجد.

(٤) السيرة النبوية ج٤/ ٤٤٩ تحقيق د. أحمد مجازى السقا.

(٥) الطبقات ج١ ق٢/ ١٥ - ٣٨.

(٦) تاريخ اليعقوبى ج٢/ ٧٧، ٧٨.

(٧) تاريخ الرسل والملوك ج٢/ ٦٤٤ - ٦٥٧.

(٨) الكامل فى التاريخ ج٢/ ٢١٠ - ٢١٥.

(٩) صبح الأعشى ج٣/ ٣٥٣ - ٣٦٨.

لأصحابه حين بعثهم، فيبعث به (أى الكتاب) إلى ابن شهاب الزهرى مع ثقة من أهل بلده، فعرفه ـ أى هذا الكتاب ـ، وفى الكتاب أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم: "إنى بعثت رحمة وكافة، فأدوا عنى يرحمكم الله، ولا تختلفوا علىّ. . . . . ." ووجود مثل هذا الكتاب دليل على صحة الكتب المرسلة.

أما مؤرخو الفرنجة فهم على فريقين:

١ ـ فريق ينكرصحة إرسال هذه الكتب، مستدلاً بعدم عثورهم على شىء منها فى الوثائق التى خلفها هؤلاء الملوك والأمراء.

٢ ـ فريق مقر بهذه الكتب، واتخذها دليلاً على عموم الرسالة الإسلامية. ومن هؤلاء: السير توماس أرنولد ـ المستشرق الإنجليزى ـ الذى قال: "وإن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر بعض مَنْ أُرسلت إليهم ضرباً من الخرق والغرور الداعى إلى السخرية، فقد برهنت الأيام على أنها صدرت عن يقين ثابت، وحماس متقد، وتدل هذه الكتب دلالة واضحة على عموم الرسالة التى تكررت فى القرآن"[1].

أما الرأى الأول فهو أوهى من أن يحتمل النقد والرد، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تدل دلالة قطعية على أن رسالة الرسول ـ ﷺ ـ للناس كافة. وأن الحجة التى يستندون عليها واهية، وليست دليلاً على صحة زعمهم، إذ ليس بعيداً أن تكون الصور الأصلية، لتلك الكتب، قد فقدت لسبب من الأسباب.

وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك مما هو معلوم بالدين بالضرورة، كما أجمع المؤرخون على أن الرسول ـ علي الصلاة والسلام ـ أرسل الكتب

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٤٩ تعريب د. حسن إبراهيم وزميلاه.

إلى الأمراء والملوك، يدعوهم إلى الإسلام، على أساس أن رسالته للناس كافة، لا للعرب خاصة، وليس فى طبيعة العقيدة الإسلامية، ولا فى الخطة التى سار عليها الرسول - ﷺ - فى دعوته، ولا فى أحوال الأمم عند مبعث الرسول - إلا كل ما يؤكد عموم الرسالة المحمدية. وقد صدقت الحوادث التاريخية[1] قوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[2].

---

(١) حامد عبد القادر: الإسلام ظهوره وانتشاره فى العالم ص٢٠٦.

(٢) آية ٩/ الصف

نتائج السفارات

إن إرسال الرسل والسفراء بالكتب التى كتبها الرسول - ﷺ إلى الملوك والأمراء، قد حققت نتائج عظيمة للغاية، إذ توسع ميدان الدعوة الإسلامية بحيث شملت المعروف، المعمور من أرض الله، وألقت أضواء الإسلام القوية على دنيا جديدة من العالم الخارجى، فدخل عدد غير قليل من الذين وصلتهم كتب الرسول - فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين.

كما رسمت هذه المكاتبات خريطة الدعوة الإسلامية، ليسير عليها المسلمون، بعد رسول الله - ﷺ -، ويبلغوها إلى الناس.

وفيها دليل واضح على عموم الإسلام، وأنه دين للعالمين، وفيه برهان جديد على صدق رسالة النبى - ﷺ -، وذلك بمجابهة أكبر إمبراطوريتين فى العالم، ودعوتهما إلى الدخول فى الإسلام، بالإضافة إلى اعتزازه - عليه الصلاة والسلام - بعناية ربه، وإعلان أن ما وعد به من دخول هؤلاء فى الإسلام لابد أن يتحقق.

وبهذه السفارات والرسائل أكد - ﷺ - حيوية الإسلام وتوطيد الثقة فى الشعب العربى، وأنه أجدر أن ينهض برسالة الإسلام، وأن العرب لا تنقصهم الشجاعة، إذا ابتلوا بملاقاة الأمم الأخرى، طالما اتحدوا وتضامنوا تحت راية واحدة[1].

وإزاء هذه النتائج الطيبة التى حققتها سفارات الرسول - ﷺ - والتى جعلت الأمراء والملوك يدخلون فى الإسلام، وجعلت صدى الإسلام يُدوى فى أرجاء المعمورة. نقول: إن قريشاً تأثرت كثيراً، وضاقت وأصابها الحزن العميق بخروج الدعوة إلى مناطق جديدة.

---

(١) د. محمد مصطفى النجار: سيرة الرسول - ﷺ - ص١٤٠، ١٤١ .

خاتمة

- موجز البحث

- عرض لأهم حقائق ونتائج البحث.

عرف العرب قبل الإسلام السفارة والاتصالات الدبلوماسية مع الدول والأمم المجاورة لهم، وارتبطوا معها بعلاقات الود والصداقة، وتبادل التجارة. . . .

ولما ظهر الإسلام، قام النبى - ﷺ - بدعوة الناس إليه، فأقبل أناس على دعوته، واعتنقوا الإسلام، عن رغبة واقتناع بأنه دين الحق والهدى والرشاد.

فساء ذلك صناديد قريش، وخافوا على منزلتهم ومكانتهم فى العرب من الدين الجديد، فأرسلوا إلى الرسول - ﷺ - عدة سفراء ليفاوضوه فى الأمر، ويعرضوا عليه العروض المغرية، عله أن يرجع عن دعوته. لكنهم وجدوا إصراره وتمسكه بنشرها، والمضى بها قدما.

ولما لم تفلح سفاراتهم مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - اتجهوا إلى إرسال عدة سفراء إلى عمه أبى طالب، الذى كان يبسط حمايته عليه، ولذا لا يستطيع أحد أن ينال من رسول الله - ﷺ - أو يمسه بسوء، لمكانة عمه فى قريش والعرب جميعا.

فقد كان من سادات قريش وأشرافها، صاحب رأى وحكمة ومشورة، ولا تستطيع قريش أن تقطع أمراً، أو تُقدم على عمل إلا بالرجوع إليه ومشاورته فيه.

لهذا أرسلوا له السفراء، الواحد بعد الآخر، يعرضون عليه أن يصرف ابن أخيه عما جاء به، وأن يكف عن تسفيه أحلامهم، والعيب على آلهتهم، فكان أبو طالب يردهم رداً جميلاً، والنبى - ﷺ - ماض فى دعوته، وفي كل يوم يدخل فيها عدد جديد.

فلما ضاقوا ذرعاً، قام أشرافهم بسفارة إلى عمه أبى طالب، مهددين ومنذرين، إما أن يكف ابن أخيه، وإما الحرب بينهم وبينه.

فأرسل أبو طالب إلى محمد - ﷺ - يعرض عليه الأمر، ويقول له: يا ابن أخى لا تحملنى ما لا أطيق. فرد عليه - ﷺ - رداً جعل أبا طالب يتمسك بحمايته مهما كان الأمر، إذ قال له: "والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أنى أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه" فقال له أبو طالب حين سمع ذلك: "اذهب فافعل ما شئت، ولا تخشى أحداً".

ومضى الإسلام فى انتشاره ودخوله فى قلوب الكثيرين من الناس، ثم كانت الهجرة إلى المدينة المنورة، وتأسيس الرسول - ﷺ - الدولة الإسلامية بها.

وكان من الأسس التى أقام عليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - الدولة، عقد معاهدات أمن وحسن جوار مع اليهود، ولما لم يلتزموا بها فكان جزاؤهم الطرد من المدينة، وتخليصها من شرورهم ومؤامراتهم.

وفى العام السادس الهجرى وقع صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين، ووقف القتال بين الطرفين لمدة عشر سنوات. فكان ذلك فرصة لنقل الدعوة الإسلامية على نطاق أوسع، ورأى - ﷺ - أن الوقت قد حان لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، فأرسل السفراء لدعوة ملوك وأمراء العالم إلى الإسلام، وحملهم كتبه إليهم، تحمل دعوة سلمية لا تهديد فيها ولا وعيد.

فانطلق السفراء إلى الجهات التى حددها لهم النبى - ﷺ - فأتت ثماراً طيبة، ونشرت الإسلام فى كثير من البلاد، وعرف به مَنْ لم

يعرفه.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحدد مواصفات خاصة فيمن يختاره ليكون سفيراً. منها كمال الهيئة، وجمال الصورة. وجلال المظهر، وأن يكون ذا رأى سديد، وفكر حصيف، حاضر الذهن، قادرا على التمييز بين دقائق الأمور فى تقديره لما يعرض له على البديهة، مع فصاحة اللسان وحلو عبارته، وعذوبة حديثه، ليجذب إليه السامع ويشده إليه.

وبذلك فقد كان سفراء الرسول ـ ﷺ ـ يتصفون بصفات السفير الناجح، وبذلك نجحت سفاراتهم، وكانت سبباً فى نشر الإسلام فى الجهات التى توجهوا إليها.

وقد توصلت من خلال دراسة هذا البحث إلى الحقائق والنتائج الآتية:

١ ـ عرف العرب السفارة، ومارسوا هذا اللون من العلاقات والاتصالات الدبلوماسية فيما بينهم وبين الدول المجاورة، **فأما ما كان بينهم:** فقد كان الأشراف منهم يسعون فى الصلح لفض المنازعات والقضاء على الحرب، التى كانت قد تستمر أعواماً طويلة، تأكل فيها الأخضر واليابس، وتقضى على زهرة الشباب. وكانوا يوفقون إلى حد كبير.

ولعل منه (حلف الفضول) الذى تعاهدت فيه قبائل قريش على نصرة المظلوم والوقوف بجواره حتى ينتصر من الظالم، ويسترد حقه، وقد حضره الرسول ـ ﷺ ـ مع عمومته وأشاد به.

وأما ما كان بينهم وبين الأمم والدول المجاورة: فقد عقدوا المعاهدات التجارية والمحالفات مع دولة الروم، والفرس، والحبشة واليمن...

وغيرها.

٢ - وضع الرسول - ﷺ - أسس العلاقات الدبلوماسية السليمة، وكفل الأمن وحماية السفراء، مهما كان هناك اختلاف بين الدولة المُوفدة، والتى أوفد إليها. وهو ما يعرف اليوم بـ(الحصانة الدبلوماسية). حيث أوجب - ﷺ - معاملة السفراء بالحسنى، وإحاطتهم بالرعاية والحماية. وضرب المثل الأعلى فى ذلك، فشمل سفيرى مُسَيْلمة الكذاب بكرمه وفضله، على الرغم من أنهما يوافِقان مسيلمة على ادعاءاته الكاذبة بأنه نبى وقال لهما "لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما".

فإذا كان دعاة المدنية فى العصر الحديث يتشدقون بأن الحضارة الغربية قد أرست مبدأ الحصانة الدبلوماسية للسفير، فنقول لهم: إن الإسلام قد سبقهم إلى ذلك بقرون طويلة حيث وضع - ﷺ - مبدأ حماية السفراء وأمنهم وراحتهم.

٣ - اختار الرسول - عليه الصلاة والسلام - سفراءه من الذين يتصفون بالذكاء والفطنة، وحضور البديهة، وسرعة التصرف فى الأمور. ومن الذين يتصفون بالعزم والحزم، ومن أهل العلم والفضل، بالإضافة إلى كمال الهيئة، وحسن المظهر، ومعرفة لغة ومسالك الجهات التى يرسلون إليها.

وهذه شروط نادى بها أصحاب فن العلاقات الدبلوماسية بين الدول، وحرصوا على تواجدها فيمن يعهدون إليه بهذه المهمة.

وإن الإسلام قد سبق هؤلاء بنظمه الحضارية منذ أربعة عشر قرنا.

٤ - سيَّر رسول الله - ﷺ - سفراءه إلى ملوك وأمراء العالم، بكتب منه مختومة بخاتمه، وهو ما يعرف اليوم بـ(الوثيقة الدبلوماسية) أو

الرسالة التى يحملها السفير إلى ملك أو أمير أو رئيس.

وهذه الكتب فيها دعوة سليمة إلى الدخول فى الإسلام، دون تهديد أو وعيد. وبذلك حققت السفارات نتائج عظيمة، إذ نشرت الإسلام فى أرجاء المعمورة، فدخل فيه مَنْ شرح الله صدورهم له، وعرف به مَنْ لم يعرفه.

٥ ـ وصلت السفارات النبوية إلى أجزاء من العالم، فكأنما رسم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خريطة الدعوة الإسلامية لمن يأتى بعده ليسير عليها.

٦ ـ كان جميع سفراء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الرجال، ولم نجد فى المصادر ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنه أسفر امرأة بسفارة. وذلك لأن طبيعة المرأة، وتكوين جسدها لا يتحمل مثل هذه المهام الصعبة، فهى لا تصبر على مشاق السفر، ومفارقة الأهل والولد، بالإضافة إلى ما يعتريها من حيض وولادة وغيره، كما أنها مرهفة الحس، تتأثر بالمواقف. وهذا يسبب عدم إنجاح سفارتها.

قائمة المصادر والمراجع

(مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين)

١ ـ القرآن الكريم.

ابن الأثيـــر: على بن أبـى الكرم مـــحـــمـــد ـ المتـوفـى سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م.

٢ ـ الكامل فى التاريخ ـ ١٠ أجزاء ـ الجزء الثـانى ـ طبعة دار صادر بيروت سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ـ المتوفى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م.

٣ ـ صحيح البخارى ـ الجزء السادس والسابع ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر ـ المتوفى سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م.

٤ ـ فتـوح البلدان ـ تحقـيق د. صلاح الدين المنجد ـ طبـعة مكتـبة النهضة المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٥٦م.

توماس أرنولد: مستشرق إنجليزى.

٥ ـ الدعوة إلى الإسلام ـ تعريب د. حسن إبراهيم، ود. عبد المجيد عابدين، وإسماعـيل النحراوى ـ الطبعة الثالثة ـ مكتبـة النهضة المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٧٠م.

الجاحظ: أبو عثمان عمر بن بحر.

٦ ـ التاج فى أخـلاق الملوك ـ تحقيـق أحمد زكى ـ الطبـعة الأولى ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩٤١م.

حامد عبد القادر.

٧ ـ الإسلام ظهوره وانتشاره فى العالم ـ الطبعة الثالثة ـ مكتبة نهضة مصر (بدون ذكر سنة الطبع).

ابن حجـر: أحمـد بن على بن حجـر العسـقلانى ـ المتـوفى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م.

٨ ـ فتح البارى بشـرح صحيح البخارى ـ الجـزءان السابع والثامن ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت (بدون سنة نشر).

حسن إبراهيم حسن (الدكتور):

٩ ـ تايخ الإسلام السياسى ـ ٤ أجزاء ـ الجزء الأول ـ الطبعة التاسعة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٧٩م.

الحلبى: على بن برهان الدين الحلبى الشافعى.

١٠ ـ إنسـان العيون فـى سيرة الأمين والمـأمون المشـهور بـ(السـيرة الحلبـية) جـزءان ـ الجزء الأول ـ طبـعة المطبـعة الأزهرية ـ القـاهرة سنة ١٣٢٠هـ ـ والجزء الثانى طبعة صبيح ـ القاهرة سنة ١٩٣٥م.

ابن سعـد: محـمد بن سـعد ـ كـاتـب الواقـدى ـ المتـوفى سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م.

١١ ـ الطبقات الكبرى ـ الجزءان الأول والثـانى ـ طبعة دار التحرير ـ القارة سنة ١٩٦٨م.

السـهيلى: أبو القـاسم عـبد الرحـمن بن عبـد الله ـ المتوفى سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م.

١٢ ـ الروض الأُنُف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ تحقيق طه عبـد الرءوف سعد ـ طبعـة مطبعة الحاج عـبد السلام شقـرون ـ القاهرة (بدون ذكر سنة النشر).

ابن سيد الناس: أبو الفتح محـمد بن محمد بن يحيى ـ المتوفى سنة

٦٧١هـ/ ١٢٧٢م.

١٣ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ـ جزءان ـ الجزء الثانى ـ طبعة دار المعارف ـ بيروت.

السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن ـ المتوفى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.

١٤ ـ تاريخ الخلفاء ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة مكتبة نهضة مصر. القاهرة سنة ١٩٧٥م.

الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير ـ المتوفى سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

١٥ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ١١ جزءًا ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف. مصر.

ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر النمرى ـ المتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م.

١٦ ـ الدرر فى اختصار المغازى والسير ـ تحقيق د. شوقى ضيف ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ مصر سنة ١٩٨٣م.

عبد الفتاح على شحاتة (الدكتور):

١٧ ـ تاريخ العرب وصدر الإسلام ـ القسم الثانى ـ مطبعة المدنى ـ القاهرة سنة ١٩٧٢م.

ابن الفراء: أبو على الحسين بن محمد.

١٨ ـ رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ الطبعة الثانية ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت سنة ١٩٧٢م.

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ المتوفى سنة

٢٧٦هـ/ ٨٨٩م.

١٩ ـ المعارف ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف ـ مصر سنة ١٩٨١م.

القرماني: أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ـ المتوفى سنة ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م.

٢٠ ـ أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ـ طبعة عالم الكتب ـ بيروت.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي ـ المتوفى سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م.

٢١ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ ١٤ جزءا ـ الجزء السادس ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أيوب بن سعد ـ المتوفى سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م

٢٢ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد ـ ٤ أجزاء في مجلد واحد ـ طبعة المطبعة المصرية ومكتبتها ـ القاهرة.

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ـ المتوفى سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.

٢٣ ـ البداية والنهاية في التاريخ ـ ١٤ جزءاً ـ طبعة دار الفكر ـ القاهرة ـ وطبعة دار الغد العربي ـ القاهرة سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

محمد جبر أبو سعدة (الدكتور):

٢٤ ـ النظريات السياسية ونظم الحكم الإسلامية ـ محاضرات لطلاب

كلية اللغة العربية ـ القاهرة سنة ٧٥ ـ ١٩٧٦م.

محمد حسين هيكل (الدكتور):

٢٥ ـ حياة محمد ـ طبعة دار المعارف ـ مصر.

المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين ـ المتوفى سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م.

٢٦ ـ التنبيه والإشراف ـ طبعة دار صعب ـ بيروت.

الإمام مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ـ المتوفى سنة ٢٦١ـ/ ٨٧٤م.

٢٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ـ طبعة دار الغد العربى ـ القاهرة سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

المصعب الزبيرى: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ـ المتوفى سنة ٢٣٦ـ/ ٨٥٠م.

٢٨ ـ نسب قريش ـ تحقيق ليفى بروفينسال ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف ـ مصر سنة ١٩٨٢م.

المقريزى: تقى الدين بن العباس أحمد بن على ـ المتوفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م.

٢٩ ـ إمتاع الأسماع بما للنبى ـ ﷺ ـ من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ـ الجزء الأول ـ تحقيق محمد عبد الحميد النميسى ـ الطبعة الأولى دار الأنصار ـ القاهرة سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

محمد مصطفى النجار (الدكتور):

٣٠ ـ سيرة الرسول ـ ﷺ ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الكليات

الأزهرية ـ القاهرة سنة ١٩٦٧ .

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ـ المتوفى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م .

٣١ ـ لسان العرب ـ إعداد يوسف الخياط، ونديم مرعشلى ـ طبعة دار لسان العرب ـ بيروت (فى ثلاثة مجلدات كبار). وطبعة دار المعارف ـ مصر .

ابن هشام: محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ـ المتوفى سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م .

٣٢ ـ السيرة النبوية ـ تحقيق د. أحمد حجازى السقا ـ طبعة دار التراث العربى القاهرة سنة ١٩٧٩م .

ياقوت: شهاب الدين بن عبد الله الرومى الحموى ـ المتوفى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م .

٣٣ ـ معجم البلدان ـ ٥ أجزاء ـ طبعة دار صادر ـ بيروت سنة ١٩٧٧م .

اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر ـ المتوفى سنة ٢٨٤هـ/ ٨٧٩م .

٣ ـ تاريخ اليعقوبى ـ جزءان ـ الجزء الثانى ـ طبعة دار صادر ـ بيروت .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات